الدكتور أحمد درويش



إنقاذ اللغة من أيدي النُّحاة

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

إنقاذ اللغة
من
أيدي النحاة

إنقـاذ اللغـة من أيـدي النحـاة : حوار جـذري حـول مشكـلات العربيـة المعاصرة / أحمد درويش . ـ دمشق : دار الفكر، ١٩٩٩ . ـ ٨٨ ص ؛ ٢٥ سم .
١ ــ ٤١٠ د ر و   إ   ٢ ــ العنوان   ٣ ــ درويش
مكتبة الأسد
ع ــ ٥٧ / ١ / ١٩٩٩

د. أحمد درويش

إنقاذ اللغة من أيدي النحاة

حوار جذري حول مشكلات العربية المعاصرة

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي : ١٢٢٩,٠١١

الرقم الدولي : ISBN 1 - 57547 - 579 - 0

الرقم الموضوعي : ٤٥٠/٤١٠

الموضوع : اللغة العربية ، النحو والصرف

العنوان : إنقاذ اللغة من أيدي النُّحاة

التأليف : د . أحمد درويش

الصف التصويري : دار الفكر ـ دمشق

التنفيذ الطباعي : المطبعة العلمية ـ دمشق

عدد الصفحات : ٨٨ ص

قياس الصفحة : ١٧ × ٢٥ سم

عدد النسخ : ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص . ب : (٩٦٢) دمشق – سورية

برقياً : فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/

E-mail: info @fikr.com

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ = ١٩٩٩م

المحتوى

بين يدي الحوار

خلال فصلي الربيع والصيف من سنة (١٩٩٦ م) ، دار هذا الحوار على صفحة (الثقافة الأسبوعية) التي تصدر بصحيفة الأهرام كل يوم جمعة ، وكان منطلق الحوار هذه المقالات الخمس التي كتبتها تحت عنوان : (إنقاذ اللغة من أيدي النحاة) ، وهو العنوان الذي أثار في حدّ ذاته قدراً من الجدل يكاد يكون موازياً لما أثاره مضمون المقالات ، فقد غضب بعض النحاة من العنوان ، واستعد للرد قبل أن يقرأ المقالات ، وأحياناً دون أن يقرأ المقالات ، وفريق من هؤلاء يدخل في زمرة النحاة المجددين ، ويكاد ينادي بالمضامين التي أثرتها ، ويتحمس لها ، لكن العنوان المثير من ناحية ، وطرح الفكرة من قِبَل واحد لا ينتمي إلى طائفة (النحاة المحترفين) من ناحية ثانية ، جعل بعض المجدّدين من النحاة يقفون مبدئياً في صف فكرة معارضة التجديد !

ولقد حاولت أن أسترضي بعض أصدقائي من النحاة الذين أغضبهم عنوان المقالات : (إنقاذ اللغة من أيدي النحاة) ، من خلال مداعبة لا تخلو من الجد ، عندما طرحت عليهم تأويلاً نحوياً مرضياً لذلك العنوان ذاته ، إذا اعتبرنا أن جملة (إنقاذ اللغة من أيدي النحاة) تشكل مبتدأ ، يمكن أن يقدر كل منا خبره على ما يحب . فيكون مثلاً : « إنقاذ اللغة من أيدي النحاة .. مستحيل أو .. غير مطلوب ... إلخ » .

وبعيداً عن هذه المداعبات النحوية ، يبقى جوهر القضية المطروحة شديد الخطورة والخطر ، فالعربية ، تتفلت من بين أيدي الكثرة الغالبة من أبنائها ، وتكاد تصبح زينة عند البقية الباقية ، إلا من ضاقت به الحيلة فلم يمتلك وسيلة سواها يمارس من خلالها متعة التفكير والتعبير ولقد كان بإمكان هذا التداعي أن يكون بطيء الخطو ، أو ألا يشكل خطراً قاتلاً يهدد بالانهيار لو أنه كان تداعياً داخلياً فقط ، نشأ

من عوامل التعرية والقدم ، وحالت صلابة البنيان دون سريانه واستشرائه ، ولكنه تداع تساعد عليه عوامل خارجية ، بعضها ناشئ من طبيعة التطور السريع لوسائل التعبير والتفكير على مستوى العالم ، والتقارب المذهل في تبادل حصاد الإنجازات العلمية لهذه الوسائل ، وهو تقارب لا يدع كثيراً من الفرص أمام التوقف أو الجمود ، فمن لا يتقدم يتأخر ، ومن لا يتابع التطور يغامر بأن يجد نفسه تحت أقدام المتقدّمين .

ولأن هذا التطور شديد التعقيد والسرعة فلم يعد البحث في مشكلات التعبير مقصوراً على النحاة وعلماء اللغة وحدهم في كل لغات العالم ، بل يشاركهم في الحوار علماء الرياضيات ، والمنطق ، والرموز ، وعلم النفس ، والفلسفة ، والفيزياء . وتدخل أطروحاتهم إلى المعامل ، ولم يعد هؤلاء النحاة واللغويون أيضاً يأخذون روافدهم المعرفية من كتب التراث اللغوي وحدها ، وإنما يتسلحون بأسلحة العلوم الأخرى لكي يقدموا إسهامات حقيقية في تطوير فرع العلوم الإنسانية الذي ينتمون إليه . ومن الإنصاف أن يقال : إن نحاتنا وعلماء لغتنا الأقدمين كانوا على قدر وافر من الإلمام بثقافة عصرهم في الرياضيات والمنطق والفلسفة وغيرها من فروع المعرفة الإنسانية المعاصرة لهم ، وهو الإلمام الذي سمح لهم بطرح نظرياتهم ، وتثبيت دعائمهم لكي تبقى قروناً طويلة بعدهم ، وينبغي أن نقول هنا أيضاً : إن نحاتنا المعاصرين - في مجملهم - لا يتحقق لهم هذا القدر من التواصل مع فروع المعرفة الإنسانية الأخرى ، وهو التواصل الذي حققه أسلافهم من ناحية ، ويحققه رفاقهم من النحاة في لغات العالم المتقدمة الآن من ناحية ثانية .

وإذا كانت سرعة التطور تخلق هذه الفجوة بين الواقفين والمتقدمين وتزيد من شروخ التداعي . فإن عاملاً خارجياً آخر يزيد من مخاطر دفع هذا التداعي إلى مرحلة الانهيار ، وذلك العامل هو المحاربة الحقيقية للغة العربية على يد قوى كبرى ليس من صالحها السياسي أو الاقتصادي أو العسكري أو الحضاري عامة ، بقاء هذه اللغة قوية وبقاء الأفراد المنضوين تحت لوائها متماسكين . ولا ينبغي أن تؤخذ مثل هذه المخاوف

الآن على أنها إهاجة لمشاعر وطنية أو قومية أو دينية ، أو على أنها نزعة خطابية في معالجة القضايا ، وإنما ينبغي أن ينظر إليها على أنها جزء رئيسي من أسلحة الصراع للسيطرة على منطقة العالم العربي والإسلامي بموقعها وثرواتها ، وعلى أن الإضعاف لهذه اللغة عنصر هام من عناصر التفكيك لمجموعة متماسكة في رقعة جغرافية كبيرة على مستوى المكان ، وعنصر من عناصر التفكيك كذلك لجماعة شديدة الاتصال بتراثها على مستوى الزمان ، وهو الاتصال الذي تحاول كثير من القوى في العالم اليوم أن تلبسه ثوب (الإرهاب) وأن تجعله يمثل الخطر الرئيسي على حضارة العالم المعاصرة .

وهل يمكن أن نتصور أن فلسفة كالفلسفة الصهيونية تجعل من أرض اللغة العربية منطلقها الواسع لتحقيق كل أحلامها العنصرية ، وتمهد لذلك بإضعاف كل العناصر المناوئة لتحقيق الحلم ، هل تتصورها غافلة عن إضعاف اللغة ومن خلالها إضعاف الشخصية العربية بوسائل يظهر بعضها ، ويغيب عنا أكثرها ؟!.

إن مواجهة مشكلة اللغة في هذه المرحلة إذن . تمثل مهمة حضارية وثقافية وقومية ودينية . تكاد تتساوى مع مواجهة مشكلة البقاء على خريطة الحضارات العالمية .

ومن أجل هذا ينبغي أن يفتح باب النقاش على مصراعيه أمام أبناء هذه اللغة ومحبيها ، وألا يغضب أصدقاؤنا النحاة ، إذا قلنا إن مشكلة اللغة العربية أهم لدينا جميعاً من أن نترك معالجتها لفريق واحد ، حتى لو كان فريق النحاة واللغويين مع الاعتراف بفضلهم وجهدهم في الماضي والحاضر والمستقبل أيضاً .

وينبغي أن يفتح هذا النقاش دائرة واسعة يلتقي فيها عالم النحو بالأديب المبدع ، والصحفي ، والمذيع ، ومصمم الإعلانات التجارية ، وصانع برامج الحاسب الآلي ، ومخطّط لعب الأطفال ، والعالم المؤلف في شتى مجالات المعرفة ، والقارئ والمستمع الذي يوجه إليه نتائج هؤلاء جميعاً ، والتلميذ الذي يشكل حلقة الاتصال في

قائمة حمَلَة العلم وحُماة اللغة ، وهي الحلقة التي امتدت خمسة عشر قرناً ، وشكلت أطول عمر ممتد للغة حية في التاريخ ، وينبغي أن نبتعد بعصرنا عن أن يشهد لحظات ضعفها القاتلة أو أفولها لا قدر الله .

في ضوء هذا الهدف ، حرصت على أن أعيد نشر الملف الكامل لهذه القضية الهامة ، سواء من خلال المقالات الرئيسية التي أثرت بها القضية ، أو مقالات الحوار والتَعقيب التي تكرم علماء أفاضل من مصر والعالم العربي بكتابتها رداً على مقالاتي ، ونشر معظمها في صفحة (الثقافة) بالأهرام ، ونشر بعضها في منابر صحفية أخرى ، ولقد فتحت هذه المقالات كثيراً من الآفاق أمام المشكلة وطرحت تساؤلات جديدة ، وعندما نعيد طرح الملف كاملاً أمام القارئ فإننا نرجو لحلقة النقاش أن تتسع وتقدم عونها في البحث عن حلول جذرية للمشكلات التي تواجه العربية اليوم .

والله ولي التوفيق .

أحمد درويش

إنقاذ اللغة من أيدي النحاة(☆)

العلاقة التي تربط بين اللغة العربية وأبنائها في العصر الحديث علاقة تثير كثيراً من التساؤلات ، فهم يتفقون على أنها تشكل بعداً رئيسياً في تكوين الشخصية العربية ، سواء في علاقتها بماضيها وهي علاقة لا تقف فقط عند حدود الأهمية ، وإنما تتعداها إلى القداسة ؛ لاكتسابها صفة دينية تتمثل في أن العربية هي لغة القرآن الكريم .. والنصوص والعلوم المتصلة به ، أم في علاقتها بحاضرها الذي يجعل العربية هي وسيلة الاتصال الأولى على المستويات المختلفة بين أبناء الأقطار العربية المختلفة .

لكن كثيراً من أبناء هذه اللغة ، يواجهون قصوراً ظاهراً في السيطرة عليها والتفكير بها ، وتحويلها من مجرد معرفة مفروضة أو واجبة إلى معرفة محبوبة ، يتم السعي إليها والتمتع بها ، فينفضّون عنها في كثير من الأحايين يأساً أو زهداً ، وينصرفون إلى أدوات لغوية أخرى يبرزون من خلالها طاقاتهم التفكيرية التي هي ضرورية للحياة ، فضلاً عن التقدم والرقي ، ويستقر في أذهانهم ما لا بد من أن يورث للأجيال التالية ، من صعوبة اللغة وانعزالها عن التفكير الحي .

ولو كانت هذه الظاهرة مقصورة على فئة معينة من متعلمي هذه اللغة ، لوجب أن يتم البحث عن أوجه القصور لديهم ، وأن تتم محاولة فهم الظاهرة انطلاقاً من هذه الأوجه . ولكنها ـ للأسف ـ ظاهرة شديدة الشيوع ، حتى لدى كثير ممن يملكون حسن النوايا وصدق العزم والرغبة في السيطرة على اللغة ، ويكفي أن نلقي نظرة على مجمل طلاب المدارس في العالم العربي ، وهم يعدون بالملايين وتتفاوت درجات تحصيلهم

(☆) الأهرام ١٩٩٦/٤/٢٦ .

العلمي بين من هم في أعلى السلم أو في أوسطه ، أو حتى دون ذلك بقليل ، هؤلاء جميعاً عندما ينتهون من مرحلة الدراسة الثانوية ، يكون قد ترسب في ذهن كل منهم شيء ما عن مبادئ العلوم التي درسها في التاريخ والرياضيات والجغرافيا والعلوم ، فيفرق بين خط الطول وخط العرض ، ومبادئ الجمع ومبادئ الطرح ، والعصر الحجري والعصر الحديث ، لكن هذا الطالب نفسه ـ ويا للعجب ـ لا يفرق في أحيان كثيرة بين المرفوع والمنصوب والمجرور ، وقد يكون محصوله من اللغة الأجنبية التي درسها عدة سنوات ، أكثر طواعية بين يديه من محصوله من العربية التي ولد وهو يتحدث بها ! ومن هنا فإن تفكيرنا ونحن نبحث عن أوجه القصور ينبغي ألا ينصب على المتعلم وحده ـ كما نفعل عادة ـ فنلقي عليه كل اللوم ، وإنما ينبغي أن يتجه إلى بعض الزوايا الأخرى .

يمكن أن نفكر مثلاً في اللغة ذاتها ، وأن نتساءل بصراحة : هل هي بالفعل شديدة الصعوبة ، يستحيل أن يلم بها الطالب المتوسط كما يلم بفروع المعرفة الأخرى ؟ وهل هي بالفعل شديدة الجمود بحيث يصعب أن تكون لغة للتفكير الحي ، ولتحصيل المعرفة وأدائها ، ولأن يتجاوز بها (العالم) مرحلة الحوار مع شكل اللغة إلى مرحلة الحوار باللغة الصحيحة مع قضايا العلم المختلفة ؟

إن الأمر لو كان كذلك لوجب أن نتوقف جميعاً عن محاولة إحياء جسد ميت (مع أن جيراننا استطاعوا أن يحيوا اللغة العبرية الميتة ، وأن يبثوا الحياة من جديد في أوصالها) .

ومع ذلك فهذه الافتراضات لا تصمد أمام الواقع فكثيرون من مثقفي العصر . وبينهم علماء في الرياضيات والطب والفلك وغيرها من فروع المعرفة ، تمكنوا من إجادة اللغة العربية ومن التفكير الحي بها ، بل ومن المساعدة على تطوير أدواتها ، بل إن كثيراً من غير العرب تصل إجادتهم للعربية حداً مدهشاً ، ولقد سجل رفاعة الطهطاوي في (تخليص الإبريز) أن معاصره (سلفستر دي ساسي) عندما قرأ كتاب

رفاعة بالعربية أرسل إليه يثني على آرائه وأفكاره ، ويوجه إليه بعض ملاحظات حول مستوى لغته العربية ، وعدم تحقيقها دائماً لشروط الصحة ، ومن هنا فإن تفكيرنا أيضاً ينبغي ألا يتوقف عند المادة (المتعلَّمة) وإنما ينبغي أن يتوجه تفكيرنا إلى طريقة تعليم المادة ، وهل هي طريقة تساعد على تيسير اللغة وتحبيبها أو تصعيبها والتنفير منها ؟

وأنا أظن أن طريقة (النحاة) التي يقدمون بها اللغة العربية إلى المعاصرين بدءاً من تلاميذ المدارس حتى كبار المتخصصين ـ طريقة تحتاج إلى مراجعة جذرية ، وليس إلى مجرد تغيير بعض الأمثلة والشواهد كما يحدث عند بعض المجددين منهم . علينا أن نتساءل ونحن نواجه التلميذ بدروس اللغة العربية : هل نعلمه لغة أجنبية أو نعلمه لغته ؟ وإذا اخترنا الإجابة الثانية ، فإننا فيما يبدو نهمل كنزاً عظيماً يكاد يمثل أكثر من ثلاثة أرباع المخزون اللغوي لدى التلميذ وهو لغته (العامية) التي تنتمي معظم مفرداتها وتراكيبها ونحوها وصرفها إلى اللغة العربية ، ولا تفترق عنها إلا افتراق اللغة الشفوية عن اللغة المكتوبة ـ فأولى درجاتها هي الدرجة التي ينبغي أيضاً أن تكون هدفنا الوحيد في السلم الأول للتعليم ـ ومن هنا ، فإن فكرة (المخالفة الضرورية) بين الفصحى والعامية ، ينبغي أن تبتعد عن قلم مؤلف الكتاب وواضع النص ومنسق القواعد في مرحلة التعليم الأولى ، بل ينبغي أن تحصر المفردات التي تقدم للتلميذ ، وأن نصنع كما يصنع علماء اللغات الأخرى ، فيكون بين أيدينا كم من المفردات من ألف كلمة بسيطة مثلاً ، ويختار معظمها مما يألفه الطالب في لغته المسموعة ، ويتم التعامل معه بها والارتقاء به من خلالها ، بل ويتم في مراحل تالية تبسيط التراث لعامة القراء من خلال هذه الكلمات ، وأن نتجه إلى الاعتقاد بأن عظمة النصوص تكمن في غنى أفكارها لا في صعوبة كلماتها والتفافها .

وعلينا أن نتساءل ونحن نقدم للطالب (هيكل اللغة) : هل نقدم له جسد اللغة الحي النابض بلحمه ودمه وحيويته وجماله ، أو نقدم له هيكلها العظمي الذي يبدو

مخيفاً ومفزعاً في بعض الأحيان ، حتى وإن بدا صلباً ، وبدا التعرف عليه ولمسه ضرورياً عند أطباء العظام ؟

إن التلميذ يواجه شيئاً مخيفاً بالدرجة نفسها عندما يسمع في بداية تعرفه على اللغة بالأشياء المستترة والمقدرة والمضمرة والمحذوفة والأشياء التي لها محل من الإعراب ، والتي لا محل لها ، وبالتمييز الملفوظ ، والتمييز الملحوظ وبالصيغ المعدولة والتي كان لها أصل فقلبت عنه ، ولا بد أن يعتقد خياله الصغير ، إذا حاول التفكير أن جسد اللغة (مسكون) بكثير من الخفايا التي لا يملك الإحاطة بها إلا من يعرف أسرار (تسليط العامل على المعمول) ، وغالباً ما يعتقد التلميذ أن هذه مسائل ، ليست في بساطة مبادئ العلوم الأخرى ، ولا قواعد اللغة التي يبدأ تعلمها بحفظ أغنية ، وإجراء محادثة ، وكتابة خاطرة ، والتعبير عن فكرة حية ، فيتحول جهده إلى حفظ (القواعد) التي لا يفهمها ، وأن يساعده المدرس الخصوصي على التنبؤ بالأسئلة المحتملة وأن (يفرغ) معلوماته على ورقة الإجابة ، وينتظر اليوم الذي يفرغ فيه من الثانوية العامة فينسى حكاية (العربي) إلى الأبد .

ولا يختلف الأمر كثيراً عند معظم الذين يتخصصون في اللغة العربية في الجامعات ، ففوق هذا البناء الهش الذي قدموا به من المرحلة الثانوية ، توضع كتل خراسانية من آراء البصريين والكوفيين ، ولغة « أكلوني البراغيث » ، والنقاش حول دقائق المنظومات ، والأوجه المحتملة واللغات الشاذة ، دون تفريق ضروري بين تعليم النحو ودراسة تاريخ النحو ، وبين تعليم اللغة ودراسة تاريخ اللغة ، والنتيجة على المستوى العملي أن يخرج المدرس مثقلاً بكثير من المعلومات المشوشة التي لا يستخدم معظمها ، وعلى المستوى التطبيقي ، أن تظل لغة المدرس نفسه في حاجة إلى مزيد من السلامة التي قد يصل إليها هو بعد فترة ـ كما يحدث لكثير من المثقفين ـ بجهده الذاتي ـ وليس بقواعد الإضمار والتقدير التي تعلمها . إن علينا أن نفرق بين نحوٍ ، ندرسه لكي نفسر به دقائق التراث ، ونقرأه على ضوئه ، وذلك ضروري جداً ، ولكنه ينبغي ألا

يـدرس إلا في الـدراسـات العليـا ، ونحوٍ نتعلمـه لكي نعرف بـه كيف تقـوم لغـة المعرفـة والثقافة الحية المعاصرة ـ ولكي نفكر من خلال لغة صحيحـة فنصل إلى أفكار صحيحـة ، وهو النحو الذي لم نهتد بعد إليه ، وعلينا في سبيل الوصول إليه أن نلغي الخصام المفتعل بين لغة الكلام ولغة الكتابـة ، وأن نلغي الحلف غير المقـدس بين تفكير منـاطقـة القرن السابع الميلادي (وهم امتداد لمنطق ما قبل الميلاد) وبين لغـة القرن الحـادي والعشرين الـذي لا تفصلنـا عنـه إلا عـدة شهور ، وأن نلغى الجفـوة غير المبررة بين النصـوص التي نهتدي من خلالها إلى نموذج لغة الكتابـة المعـاصرة ، وبين نصوص أدبـاء العصر الحـديث وعلمائـه في مجـالات العلم المختلفـة ومؤرخيـه وبـاحثيـه في الاقتصـاد والاجتماع والصراع الحضاري ـ والمتحدثين عن هموم الإنسان في حياته اليومية .

وبهذا وحده نستطيع أن ننتزع اللغة الجميلة من براثن المنهج غير الجميل .

من الفصحى المعاصرة .. إلى فصحى التراث ...(☆)

يترسب في أذهاننا جميعاً من حكايا التراث الشعبي قصة الدبة التي كانت تحب صاحبها ، وتحن عليه ، وتود أن تبعد عنه كل ألوان الأذى ، وعندما رأت ذبابة تحوم حول وجهه وهو نائم ، وفشلت في إبعادها عنه ترصدت لها حتى استقرت على رأس الرجل فهوت عليها بحجر ثقيل كان كافياً لكي يهشم الذبابة والرأس معاً . وتقودنا الحكاية إلى أن النيات الطيبة وحدها لا تكفي لإنقاذ من نحب ، وأنه لا بد أن يساندها حوار هادئ حول : متى ولمن وكيف نوجه الأحجار ؟

وأعتقد أن في نفوسنا جميعاً جزءاً متفاوت القدر من السلوك الغريزي الذي تشير إليه هذه الحكاية ، وأن كثيراً منا قد يكونون سبباً في قتل من يحبونهم إن لم يكن بالحجارة فبشدة الضم إلى الصدر حتى تتحطم الأضلاع ، أو بإغلاق كل منافذ الهواء حتى تتعطل الرئة .

والعربية الفصحى التي نحرص عليها ونحبها جميعاً ، ونتألم حين نرى مظاهر الضعف والشحوب بادية عليها ، في حاجة إلى أن نطرح حول وسائل تعليمها السائدة بعض الأسئلة الصريحة وأولها :

هل نحن أمام فصحى واحدة أو فصحيات متدرجة على مستوى الزمان ؟

وهل الفصحى التي نتعامل بها اليوم في خطبنا ورسائلنا ورواياتنا وشعرنا ، ومقالاتنا الصحفية ، ومؤلفاتنا العلمية ، هي الفصحى نفسها التي كان يكتب بها الجبرتي وابن إياس ، أو يكتب بها قبل هذا ، أبو العلاء المعري والمتنبي وأبو حيان التوحيدي ،

(☆) جريدة الأهرام ١٩٩٦/٥/٣ .

أو هي فصحى الجاحظ وبشار وعبد الحميد بن يحي فضلاً عن أن تكون فصحى سحبان وائل وقُس بن ساعدة وآباء العرب الأقدمين ؟

أفليس هناك تطور وتدرج كبير ، لا على مستوى المفردات فقط التي يسهل أن نتلمسها ونتعرف على التطور فيها ، ولكن على مستوى التراكيب وطرائق صوغ العبارة التي تحمل فكرة ما من متكلم أو كاتب إلى سامع أو قارئ ؟

وهل لو بعث الجاحظ اليوم وقرأ المقالة الافتتاحية لصحيفة (الأهرام) أو قرأ فصلاً لطه حسين أو نجيب محفوظ ، فهل سيخلو من الدهشة الكبرى للفرق بين صورة العربية الفصحى التي يعرفها ، والصورة الفصحى أيضاً التي آلت إليها بعد نحو ثلاثة عشر قرناً ؟ بل إن الجبرتي ورفاعة الطهطاوي لن يخلوا من جانب كبير من الدهشة والإعجاب معاً إذا أتيح لهما أن يطلعا على ما يسطره الكتاب والأدباء في الفصحى المعاصرة ، على الرغم من الاتفاق في العلامات الإعرابية لأواخر الكلمات في كل المراحل .

نحن إذن أمام تدرج لا شك فيه لمستويات اللغة الفصحى ، وأمام تطور في طريقة اختيار الكلمات وبناء العبارات وتسلسل منطق الجمل المتتالية ، وصولاً إلى بناء (العمل الكلامي) علماً أو فناً ، نثراً أو شعراً ، وهو تدرج واختلاف لا ينفي وجوه الاتفاق الكبرى التي تجعل من هذه المراحل المتتالية جسداً متكاملاً لأطول اللغات الحية عمراً في التاريخ .

وإدراك هذه الحقيقة الواضحة ، هو فيما يبدو لي جزء من المدخل الصحيح لإعادة طرح الأسئلة حول مواجهة الخلل في تعليم العربية ، بدءاً بتلاميذ المراحل التعليمية الأولى ، وانتهاء بالمتخصصين المتفرغين لدراسات اللغة ذاتها .

إن علينا أن نتساءل عن الهدف قبل أن نطرح جزئيات المنهج ، أي علينا أن نعرف ما الذي نريد أن نعلّمه من (الفصحى) للدارس العام ، الذي يمكن أن يكون

فيما بعد طبيباً أو مهندساً أو محاسباً أو تاجراً ، وما الذي نريد أن نعلّمه ، بعد ذلك من الفصحى للدارس المتخصص ، الذي سوف يتخصص في صناعة الكلام تدريساً أو كتابة أو تحليلاً أو إعلاماً ، ويشكل جزءاً من المجموعة التي تتولى الحفاظ على المسيرة الكبرى للغة ؟ وهل الفرق بينهما يكمن في الكم فقط أو في النوع والمستوى كذلك ؟ إن اللغة من هذه الناحية مادة خام لعلم من العلوم ، شأنها شأن الكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلك ، لا نملك أن نقدم حقائقها ولا حتى نجمل هذه الحقائق مرة واحدة ، وإنما يتم التدرج عادة في تقديم هذه الحقائق ابتداء بأقربها التصاقاً بالحياة ، وانتهاء بأكثرها بعداً وإيغالاً في التجريد وتمثيلاً لفلسفة العلم . وهذا ما نغفل عن مراعاته ونحن نعلّم العربية الفصحى للمراحل المتدرجة .

إن أقرب مستوى لنا في مراحل النشأة ، هو مستوى الفصحى المعاصرة ، التي لا تزال حية ـ بطريقة ما ـ في وسائل الإعلام المقروءة والمنطوقة ، وفي قصص الأطفال ورسائل الأهل والأصدقاء والمحبين ، وكتب المدارس ، والروايات والقصص والرسوم المتحركة ومؤلفات السياسة والاقتصاد والتاريخ والاجتماع ، وحفلات الوداع والاستقبال ، وخطب المرشحين ، وأحاديث الوعاظ وتأبين الراحلين ، إنه مستوى يشيع في حياتنا ويفهمه كل الناس حتى الأميون وهو في ذاته مستوى متدرج ، يوجد من بين المتعاملين به من يفهمه فقط ويحاول أداءه بطريقة ما ، ومن يؤديه بطريقة صحيحة ، ومن يؤديه بطريقة جميلة ، ومن يتجاوز هذا كله فيؤديه بطريقة مبدعة تحسن هذا المستوى وترتقي به يوماً بعد يوم ، وينبغي ألا ننسى أن هذا المستوى المعاصر حقّق تقدماً عظيماً خلال هذا القرن العشرين ، فتقدمت الفصحى ـ على عكس الاعتقاد الشائع ـ وأفلتت من كثير من مظاهر العجمة والأمية والتتريك التي شابتها خلال القرون الماضية ، وأن هذا المستوى يتضمن الآن مستويات أدبية وفكرية وعلمية رائعة اللغة من أمثال كتابات محمد عبده ، وأحمد شوقي ، ومصطفى المنفلوطي ، وأحمد لطفي السيد ، ومصطفى كامل ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وخليل مطران ، وسعد

زغلول ، وطه حسين ، والعقاد ، والمازني ، وهيكل ، وحافظ إبراهيم ، وعلي الجارم ، ومحمد تيمور ، ومحمود تيمور ، وأبو شادي ، وناجي ، وتوفيق الحكيم ، وإسماعيل أدهم ، ويعقوب صروف ، وسلامة موسى ، وعبد الرحمن شكري ، ومحمود حسن إسماعيل ، وسيد قطب ، ونجيب محفوظ ، ويوسف إدريس ، ومحمد حسنين هيكل وزكي نجيب محمود ، وجمال حمدان ، وغيرهم من مئات الكتاب ، والمؤلفين ، والأدباء ، والصحفيين ، والإعلاميين ، وأساتذة الجامعات ، الذين عشقوا العربية وتمثّلوها وقدموا من خلالها فكراً وإبداعاً يحببها إلى الناس .

هل يمكن أن نقول : فليكن هدفنا في المرحلة الأولى من التعليم ، أن يتعلم النشء من قواعد التركيب والنحو ، ما يساعده على استيعاب لغة هذا المستوى ، فقط ، وتقليده لمن استطاع ؟ وألا نكون طموحين وواقعيين في وقت واحد ، إذا قلنا إننا نود أن يكون عامة المثقفين من مهندسين وأطباء وحرفيين وتجار وزراع وضباط ، قادرين على أن يعبروا عن أفكارهم العادية والعلمية تعبيراً صحيحاً يضع كلامهم في درجة من درجات الفصحى المعاصرة ؟

وألا نكون مغالين وغير واقعيين إذا كنا نريد من تلميذ المرحلة الإعدادية أن يعرف دقائق لغة التراث ، ويفسر دقائق تعبيرات الجاحظ وابن العميد ؟ وإذا كنا لا نريد هذا حقاً ، فما معنى أن نفرض عليه منذ المرحلة الأولى ، ألواناً من الأمثلة النحوية ، لم يلتق ولن يلتقي بها في أي نص عربي معاصر اللهم إلا في الأمثلة المصنوعة التي ينحتها له مؤلفو كتب النحو حول بدل البعض من الكل ، وبدل الاشتمال ، والخصوص بالمدح والذم ، وأفعال المقاربة ، وكثير غيرها من الأدوات والتراكيب المهمة في ذاتها والتي تنتمي إلى مستوى آخر من مستويات فصحى التراث ، يحسن تأجيل الحديث عنه إلى مراحل لاحقة .

إننا من خلال هذا الخلط المبكر نغامر بضياع هدفين في وقت واحد ، نغامر بعزل

اللغـة أداةً للتفكير عن مـوضـوعـات التفكير الحيـة ، ونعـود التلميـذ على ألا يغـالي في المجردات التي لا يحس من ورائها بفـائـدة مبـاشرة أو قريبـة ، وإذا تكونت لـديـه هـذه العـادة فـإنها تظل مـلازمـة لـه ، حتى إذا قرر تعميـق تخصصـه في اللغـة ذاتها ، وهـو ما يساعد على إنتاج لون من التفكير الأجوف في كثير من الأحايين .

أما الهدف الآخر الأكبر الذي نغامر بـه ، فهو تفكـك علاقـة النحو بـالكلام الحيّ وبالكلام الجميل ، وهو مـا يبعث اليـأس في نفس طـائفـة كبيرة من المتعلمين ، فيقنعون من المذاكرة بالنجاح في الامتحان في أحسن الأحوال .

إنني لا أدعـو من خـلال هـذا أبـداً إلى عـدم الاهتمام بـالنحـو الـذي يفسر التراث ، ويساعد في فهم النصوص الأدبية الرائعـة التي يمتلئ بها تراثنـا والنصوص الـدينيـة التي تشكل عقيدتنا ووجداننا ، ولكنني أدعو إلى تـأجيل ذلـك إلى مرحلـة نتـأكـد فيهـا أن الطـالب قـد تهيـأ لاستيعـابها ، وألا نرتفع بـالبنـاء شبراً قبل التـأكـد من أن الأسـاس يتحمله ، وألا نكتفي بأن يردد التلميذ ترديد الببغاء قواعد لا يجد لها رصيـداً في عقلـه ولا في اللغة الحية التي يطمح أن يجيدها ولا يجد العون الملائم ، وأن نعبر في المقـابل على قواعد رئيسية ضرورية عبوراً سريعـاً استجـابـة لتقسيمـات المنهج ، ونهمل قواعـد كليـة تساعد على تنظيم التفكير في بناء المقال ومناقشة الأفكار .

إن كتب المرحلة الإعدادية تمتلئ بمجموعة من قواعـد النحو ، لا تتعـامل الفصحى المعـاصرة مع أكثر من خمسهـا ، ويظل البـاقي عبئـاً ، يشوش على الجزء المطلـوب ، من أمثال الإعراب المقدر للثقل أو التعـذر ، وتعليمـه بصحـة عبـارة مثل « أثمر الشجرة وزأر الأسود » لأن الفاعل لا يلد ولا يبيض ، وتحفيظـه عبـارة في البنـاء للمجهول مثل « إذا كان الفعل الماضي خماسياً مبدوءاً بتاء زائـدة ضم ثـانيـة مع أولـه ، فـإن كان خمـاسيـاً أو سداسياً مبدوءاً بهمزة وصل ضم ثالثة مع أوله ، وطرح أبواب ذهنيـة عليـه لا علاقـة لهـا باللغة الحية مثل الميزان الصرفي والمجرد والمزيد ما الذي يستفيده التلميذ في هـذه المرحلـة

عندما يعلم أن (اطمأن) على وزن (افعلل) ، وأن من الأسماء الخمسة (حموك وفوك) بعد أن ألغيت (هنوك) ، وهي من كلمات الشتائم . والعربية المعاصرة تستبدل بهذا كله كلمات أرق وأقل تعقيداً ؟!

إن جزءاً من جهود علماء النحو المعاصرين ، ينبغي أن ينصب على إجراء دراسات وصفية إحصائية لظواهر التركيب وقواعد النحو الموجودة في « الفصحى المعاصرة » في مستواها الأدبي الرفيع ، وأن يقتصر على تقديم هذه القواعد وحدها للطلاب في مرحلة التعليم الأولى المشتركة ، من خلال التركيز على النصوص التي تقود إلى القواعد لا على القواعد التي نبحث لها عن نصوص مفتعلة .

فإذا ما تأكدنا أن الطالب يستطيع أن يقرأ الإنتاج الأدبي والعلمي لهذه المرحلة وأن يعبر بلغة صحيحة ، فليتخصص بعد ذلك في أي فرع من فروع العلم وهو معتز بلغته ، كاتب وقارئ بها ، وقادر على التعمق لو أراد ، وإذا أراد أن يتخصص في فصحى التراث ويتعمق أسرارها ، فهو منطلق من قاعدة أساسية قوية ، يستطيع أن يبني عليها ما يشاء ، وهو يدرك في الوقت ذاته أن التعمق في الأداة يقابله تعمق الفكر المصاحب لها ، فيستفيد التراث من تعمق المتخصص في الفصحى التراثية ، كما يستفيد التفكير المعاصر من معرفة الملم بقواعد الفصحى المعاصرة المحب لها ، ونتخلص من جانب من الازدواجية الموجودة في حياتنا بين اللغة أداة التفكير وبين التفكير ذاته .. وبين الماضي نبع اللغة الأصلية والحاضر تربتها الطبيعية الحية .

الشخصية القومية والنصوص المدرسية(*)

إذا كان الاهتمام باللغة العربية وآدابها عنصراً تزدان به شخصية المثقف العربي في كل العصور ، وترتقي من خلاله درجات في سلم الترقّي الاجتماعي في إطار تقاليد مجتمعات تعودّت على الاهتمام بسحر الكلمة وقوة نفوذها وفعالية تأثيرها ، فإن هذا الاهتمام ينبغي أن نتحرك به الآن - أكثر من أي وقت مضى - من دائرة عناصر الزينة المكملة ، إلى دائرة عناصر البقاء الحيوية الضرورية اللازمة ، وذلك في إطار ما تواجهه الشخصية العربية من حرب ثقافية علمية منظمة تحاول أن تسعى بعناصرها الأساسية إلى دوائر التهميش والتمييع ، تمهيداً للحظة الاستئصال من الجذور لهذه الخلايا (المزعجة) وإحلال خلايا أكثر طواعية محلها ، وأكثر قدرة على الانسجام مع الظروف المحيطة !

إن اللغة والثقافة المرتبطة بها تشكلان جانباً هاماً من جوانب المواجهة لم يغفل عنه الطرف الآخر أبداً ، حين أدرك أن كثيراً من عناصر التفوق الحضاري مرتبطة بهذا الجانب في مراحل الجزر والتراجع ، فوسع من الثقوب حتى تكون دوائر يسهل النفاذ منها والكمون على مقربة من الخلايا ليسهل عليه توجيه الضربة القاضية لها ، وفي إطار تطور مراحل الصراع الحضاري ، ينبغي أن ننبه إلى أن هذا الصراع ، دخل في العقود الأخيرة في هذا القرن ، مرحلة ضاربة حاسمة ، لم يشهدها طوال القرون الماضية ، فلقد كان الطرف الآخر من قبل متمركزاً فيما (وراء البحر) ويعدنا أثناء المواجهة (مناطق نفوذ) له ، وانتقل رأس الحربة في الصراع الآن إلى منطقة ما (أمام البحر) دون أن تفقد الحربة جذورها الرئيسية الممتدة من ورائه ، وصرنا في نظره مناطق التهام لا مجرد مناطق نفوذ ، وتغيرت شيئاً فشيئاً صيغة المواجهة الثقافية ، فلم تعد غرباً

(*) جريدة الأهرام ١٩٩٦/٥/١٧ .

يواجه شرقاً بكل ما تحمله كلمة الشرق في ضمير الإنسانية من عراقة وسحر وقداسة ، وإنما أصبحت شرقاً مقبولاً يواجه شرقاً منبوذاً من خلال سعي وريث غير شرعي ، يتمثل في النظرية الإسرائيلية للثقافة ، إلى تنصيب نفسه ممثلاً للعراقة الشرقية المتجددة من ناحية ، وهي صيغة لا يرفضها وجدان العالم المتحضر ، وإلى تمثيل الثقافة العربية الإسلامية من ناحية أخرى على أنها الممثل للجمود الشرقي المتعصب ، وهي صيغة يتم السعي الحثيث إلى تنصيبها (عدواً رئيسياً معلناً) للحضارة الحديثة كلها حتى تتعاون جهود العالم في استئصالها ، لا قدر الله .

وينبغي ونحن نخطط لهذه المرحلة الجذرية في المواجهة ، أن نحاول الوصول إلى تصور علمي واع ومحكم ، وألا نخلط بين العواطف والوقائع من ناحية ، وألا تتداخل الأوراق من ناحية ثانية بين وسائل المواجهة السياسية والثقافية ، فإذا كان علم السياسة يبيح لصفوة المخلصين من القائمين بأمورها اللجوء إلى (المناورة) أحياناً ، ويراعى في كل الحالات قوة الواقع الفعلي وما يمليه من قبول أو رفض ، فإن علم الثقافة ينبغي أن يكون على النقيض ، فيلتفت في لحظات الخطر إلى العناصر الرئيسية التي يراد تشويه صورتها ، أو التهوين من أمرها ، أو الالتفاف حولها ، فيكون أكثر عناية بها ، وسداً لثغراتها ، ومساعدة لها على تملك وسائل الحصانة الذاتية والتغلغل في النفس حباً لا كرهاً حتى تتفاعل مع بقية العناصر مشكلة في ذاتها خط دفاع حصيناً .

ومن هذه الزاوية ينبغي إعادة النظر إلى المواد الثقافية التي نطلق عليها اسم (النصوص) ، ونقدمها للقارئ بصفة عامة ، ولطلاب المدارس في المرحلة الرئيسية لتكوين الشخصية بصفة خاصة ، وأن نتساءل عن مدى الدور الخطير الذي يمكن أن تقوم به هذه النصوص في بناء الشخصية العربية الإسلامية وتكوين مفهوم ثقافي ، يصمد في وجه الصراع الحضاري ، وإلى أي مدى يساعد التصور والاختيار الفعلي الآن على أدائها لهذا الدور ؟ ولا شك أن هذه النصوص ، حين يتم اختيارها ، وفقاً لتصور

نظري مسبق عن الهدف من تقديمها ، يمكن أن تشكل المدخل الرئيسي ، الذي لا ينافسه في ذلك مدخل آخر إلى الثقافة وبناء الشخصية ، وأن تشكل الجسر الضروري الذي يعبر عليه المتعلم إلى القراءة ، وهو عالم نحتاج إلى مضاعفة الإغراء بالدخول إليه ، وتيسير الوسائل لكي يتحول إلى عادة عند أبنائنا ، كما هو الآن عند الشعوب المتحضرة ، ولا يمكن في غيابها أن يتشكل الفرد المتحضر المتطور .

ونحن في غياب هذه العادة الاختيارية للقراءة نلجأ الآن إلى القراءة الإجبارية في شكل النص المدرسي ، وعلينا أن نتساءل عن نوع الصلة التي ننشدها بين التلميذ القارئ والنص المقروء . وهناك تصوران متقابلان مفترضان لهذه العلاقة ، تصور القشرة ، وتصور الخلية أما التصور الأول فيترسب منه في أحسن حالاته قشرة خارجية تتفاوت ضعفاً وقوة وطول مكث أو سرعة انفصال ، وأخشى أن يكون هذا التصور هو الذي يهيمن على علاقة كثير من المتعلمين عندنا باللغة العربية ، من خلال القواعد التي تعلموها والنصوص التي قرؤوها ، ووفقا لهذا التصور ، يعلق بذهن التلميذ العادي ، ما يقلل عنه الحرج في لجنة الامتحان ، ويحتفظ التلميذ المتوسط بما قد يساعده في امتحانات أخرى قادمة ، ويظل في ذهن التلميذ المتفوق أصداء شبه منعزلة ، لا تطردها الذاكرة بسهولة ، وقد يقول لك بعد تخرجه من الطب أو الهندسة ، إنه ما زال يحفظ :

مكر مفر مقبل مدبر معاً

وأنه تعجبه :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

وقد يذكر أسماء لبعض الشعراء أو المؤلفات على تفاوت في إحكام النطق أو تسامحه ، إنها قشرة قابلة لأن يبدلها الجسم مع تبديل الخلايا ، وأن تخلع في أول فرصة كما تخلع الثياب . وكما تتلاشى قواعد الإعلال والإبدال .

أما التصور الثاني وهو تصور الخلية فيهدف إلى ما هو أبعد من هذا ، إنه يهدف إلى

أن تكون القراءة المفروضة خلية موائمة منتقاة ، تتفاعل مع الخلايا الأخرى وتقود إلى القراءة الاختيارية المثمرة التي تساعد على تكوين الشخصية الحية ، وهذه القراءة في ذاتها ، يمكن أن تتجدد وتتنوع بتنوع الاهتمامات الثقافية اللاحقة ، لكنها سوف تبقى فروعاً ممتدة لبذرة تقديم النص في المدرسة بطريقة واعية ، ومن هنا ينبغي أن تركز على فكرة (النص الخلية) في هذه المرحلة .

ما الذي يجعل نصاً ينتمي إلى تصور (القشرة) في ذهن التلميذ ؟ إننا لم نتناقش بعد جيداً حول معنى النص ، وما الذي يجعل جملة من السطور المكتوبة مؤهلة أكثر من غيرها لكي تكون نصاً يطرح في فصول الدراسة ؟

أهو شكلها البليغ فقط ؟! أم فكرها العميق ، أم رصدها لتجارب إنسانية خالدة ، أم توسيعها لدائرة المعرفة ، أم تشكيلها لحلقة ضرورية من حلقات التطور أم اشتمالها على باعث أساسي للاعتزاز والنخوة ، أم تأهيلها العقل لخوض مجالات جديدة أم انتماؤها إلى دائرة العناصر الثابتة في الإبداع ؟

وليست كل النصوص المكتوبة في فصحى التراث أو الفصحى المعاصرة قابلة لأن تدخل إلى فصول الدراسة حتى وإن كانت بليغة فيما نظن ، وكثير من الأعمال التي نبتعد بها عن هذه الفصول جديرة بإعادة النظر إليها في ضوء مفهوم ثقافة القشرة وثقافة الخلية .

إن الأوربيين اهتموا منذ القرن السابع عشر بمواصفات النص الذي يصلح لأن يطرح في فصل الدراسة (Classe) ، وأطلق على هذه النصوص مصطلح (Classique) كلاسيكية الذي تتسع دائرته دون أن يفقد عنصر الأحكام .

ونحن بحاجة إلى مراجعة بعض معاييرنا في اختيار النصوص قبولاً أو رفضاً ، وأولها معيار (الشكل البلاغي) على إطلاقه ، فما يكون بليغاً في زمن ، قد لا يكون

بليغاً في زمن آخر ، وما قد يكون ممتعاً في مرحلة قد لا يكون له الأثر نفسه في مرحلة تالية لها ، وأظهر مثال على ذلك في النصوص المدرسية ، الرسائل الديوانية والإخوانية التي تنتمي إلى القرون السابقة ، وتخلو غالباً من أي قيمة فنية في تشكيل الذوق الجمالي والشخصية الثقافية في مرحلة الإعداد ، مثل رسائل القاضي الفاضل وابن العميد وغيرهما وامتداداتها حتى العصر الحديث وهي رسائل تصيب التلميذ بالعنت ، وتشكل لديه انطباعاً بأن النص الأدبي هو معرض لمجموعة من الحيل البهلوانية ، عليه أن يبحث في طرقاتها المتشابكة عن المحسنات البديعية ، وهو عندما يقارن المتعة أو الفائدة التي تبقى لديه بعد قراءة أمثال هذه النصوص ، بما تبقى لديه بعد قراءة نصوص شارل ديكنز أو شكسبير أو بلزاك ، التي تعرض عليه في فصول المدرسة أيضاً ، فلن يعود باختياره أبداً إلى ابن العميد أو القاضي الفاضل . ونحن نغفل عن كثير من عناصر الملاءمة ونحن نختار بعض النصوص من المعلقات أو النقائض للتلميذ الصغير فيضطرب ذهنه أمام استيعاب « المواقف الأدبية الإنسانية » فيها ، بعيداً عن المحسنات البلاغية والألفاظ الصعبة . حكى لي مرة تلميذ صغير أن مدرس اللغة العربية وهو يشرح لهم بيت عمرو بن كلثوم في المعلقة وهو يخاطب عمرو بن هند .

تهـدّدُنـا وتُـوعِـدُنَـا رويـداً   متى كُنَّـا لأُمِّــكَ مُقْتَـوِيْنَـا

حاول أن يبسط لهم معنى الشطر الأخير بالعامية قائلاً : إن معناه : « ما كنّاش خدامين عند أمك » ، ومع فزعي من التبسيط المخل لعبارة المدرس ، فإنني رأيت أن مجال الحركة أمامه محدود مع هؤلاء المبتدئين . ولا يختلف الأمر كثيراً مع (النقائض) التي نقدمها للطلاب في بداية المرحلة الثانوية ، وهم بعد أن يفكوا صعوباتها ، سوف يكتشفون أن شاعرين يتشاتمان ، ولا يترك أحدهما مجالاً مما يتصل بالآباء أو الأجداد ، والأعمام ، أو الأخوال ، والعمات والخالات أو الغمز أو اللمز إلا لجأ إليه ، فما معنى أن نقدم هذا الكلام للطالب في سن المراهقة التي نحثه فيها على حسن السلوك وعفة

اللسان ؟ أفليس من الأجدر أن نرجئ هذه النصوص لشيوخ البلاغة والنحو والأدب يتدارسونها في مرحلة أخرى أكثر ملاءمة ؟

على أن التراث العربي في ماضيه وحاضره لو كان فقيراً لعذرنا الذين يضطرون إلى هذه الاختيارات ، ولكنه مملوء بالممتع والمفيد من نصوص القرآن والأحاديث الصحيحة إلى أدب الرحلات ، وأدب الجغرافيين ، ونصوص الشعر الإنسانية العظيمة ، والتي ليس من الضروري أن تنتمي فقط إلى المعلقات أو المذهبات ولا إلى مشاهير الشعراء ومكثريهم ، وكتابات صناع الحكايات والقصص والتجارب والسير الذاتية ، وكتابات علماء الطبيعيات وما وراء الطبيعة ، وتجارب الفلكيين ، ووصف علماء النبات واجتهادات الأطباء ، وتأملات الفلاسفة ، ومناقشات المفكرين ، وأدب البحار وكتب العجائب والغرائب وإبداعات القصص الشعبي ، وكلها كتابات يمكن أن تقودنا إلى فكرة (النص الخلية) ، وأن تقودنا إلى اكتشاف كثير من أسرار الشخصية القومية ، وضخ الدماء في كثير من عروقها المتيبسة ، وأن تمهد لنا سبل الانتقال من الثقافة العامة إلى الثقافة الخاصة ، ومن القراءة الإجبارية إلى القراءة الاختيارية من خلال تدرج تقترحه خطة علمية محكمة لا تتقيد بالضرورة بما بين أيدينا وإن كان ينبغي أن تستفيد من كل حسناته ، ولعلنا من خلال هذا ننتقل بالنصوص من مجرد كونها علماً على هامش العلوم الأخرى ، إلى وضعها الصحيح وهو كونها علم العلوم والعامل الرئيسي في تكوين الشخصية القومية .

وضع النقاط على الحروف(☆)

شكل وضع النقاط على الحروف ـ بالمعنى الحقيقي للتعبير ـ مرحلة هامة من مراحل إزالة التشويش واللبس ، ووضع الأمور في نصابها في تاريخ الكتابة العربية ؛ فلقد كانت كثير من حروف الأبجدية العربية متشابهة تماماً ، يرمز الحرف الواحد منها إلى عدة حروف محتملة ، قبل أن تتم معرفة النقاط واستخدامها وسيلة للتمييز بين المتشابهات ، وكانت حروف مثل الباء والياء والتاء والنون مثلاً ، يرمز لها جميعاً بحرف واحد هكذا (ـبـ) وهو مجرد بروز على الخط الأفقي المستقيم للكتابة دون وجود نقط في أسفله أو أعلاه ، وكان يستطيع الكاتب أن يعبر بهذا الرمز عن أي من هذه الحروف ، وعلى القارئ أن يبذل جهده للتعرف على نوايا الكاتب الحقيقية ، وقد يستعين خلال ذلك بالسماع وبآراء الآخرين وبالاستنتاج الذاتي ، وتبقى الصورة الحقيقية مع هذا مشوبة ببعض الاحتمالات والغموض ، حتى تم الاهتداء إلى أن يكون وضع نقطة أو نقطتين أو ثلاث . فوق الحرف أو أسفله ، فاصلاً حاسماً بين هذه الحروف المتداخلة ، ومساعداً على إزالة الغموض واللبس ، وكانت تلك من أولى خطوات التطور والتجدد التي قطعت فيها العربية شوطاً طويلاً منذ التقائها بالإسلام ، ولا تزال ، وينبغي أن تستمر .

وما زال (وضع النقاط على الحروف) ـ بالمعنى المجازي هذه المرة ـ مطلباً مهماً نلجأ إليه عندما تتشعب بنا المناقشات ، وتتعدد الاحتمالات ، وتثار التساؤلات في القضايا المهمة ، ومنها قضية ضرورة التطوير الجذري للطريقة التي نتبعها الآن في تعليم اللغة

(☆) جريدة الأهرام ١٩٩٦/٥/٢٤ .

العربية لأبنائها . وإعادة النظر ، في ضوء نتائج المناقشات فيما يقدم لتلاميذ المدارس خاصة من قواعد النحو والبلاغة واختيار النصوص وتحليلها ، وتمهيد السبل أمام تشكيل الوعي القومي والشخصية القومية من خلال القراءة . وينبغي ، ونحن نجمل خطة المناقشة ، أن نعيد وضع النقاط على الحروف :

☆ ليس الموضوع المطروح للمناقشة هنا هو تطوير اللغة ، فاللغة تتطور حتى على ألسنة المعارضين نظرياً للتطوير ، ولكن الموضوع هو تطوير طريقة تعليم اللغة لأبنائها ، وهي الطريقة التي تتصل بعلوم النحو إلى حد كبير ، وقد تنبه العلماء القدماء إلى التفرقة بين هاتين الزاويتين فأشار عالم اللغة الكبير ابن جني منذ ألف عام (توفي ١٠٠٢ م) إلى ضرورة الاجتهاد في تطوير قواعد النحو المستخلصة من اللغة . فاللغة لا تغير ، وإنما الذي يستخلص منها هو ما يغير ، وبعد ابن جني بقرنين ، تصدى العالم الأندلسي ابن مضاء القرطبي (توفي ١١٩٦ م) إلى طريقة النحاة في الحذف والتأويل والقياس والاستتار والتقدير (وهي الطريقة التي نعلم بها اللغة لأبنائنا حتى اليوم) فأبان فسادها وإفسادها ، ودعا في كتابة : الرد على النحاة) الذي حققه الدكتور شوقي ضيف ، وأقام حوله الدكتور محمد عيد أطروحته العلمية ، إلى دراسة اللغة كما ينطقها العرب ، لا كما يتخيلها النحاة ، وسيمر هذا العام ثمانية قرون على وفاة ابن مضاء ، دون أن نحقق من دعوته شيئاً يذكر ، وذلك على الرغم من تعدد دعوات العلماء المعاصرين التي يطالب بعضها ـ كما فعل إبراهيم مصطفى ـ بإحياء النحو ، الذي مات ، ولا تزال بقايا من جثمانه متناثرة على صفحات كتب المدارس .

☆ لا تهدف هذه الدعوة على الإطلاق إلى التهوين من لغة التراث ولا إلى تقليل الحرص على الاهتمام بها والإفادة منها روحياً وفكرياً وأدبياً ، وإنما تهدف ـ على العكس من ذلك ـ إلى السعي إليها تشوقاً وتفهماً واستيعاباً وحباً ، من خلال التدرج الطبيعي ، وتقديم كل شيء في حينه ، وليس من خلال فرض قديمها قبل حديثها ،

وصعبها قبل لينها ، ومهجورها قبل مستعملها ، وبعض قواعدها المنطقية المهملة الجافة قبل القواعد العملية الضرورية السهلة ، وقبل النصوص المسكونة بالخلايا الحية والمساعدة على زرع هذه الخلايا في نفوس التلاميذ الغضة المتأهبة ، إننا من خلال المنهج المعكوس الذي نتبعه الآن ، نصنع كمن يحرص على إنضاج طفله الرضيع قبل الأوان فيحشو فمه الصغير بقطعة كبيرة من اللحوم الدسمة لتقوى بها عظامه وأعضاؤه ، فإذا نجا الرضيع من الاختناق من آثار هذا الحب والكرم ! فسوف تغلق شهيته في وجه اللحوم إلى الأبد ، ونحن عندما نترك عظام الحذف والتقدير والقواعد المهملة والنصوص الجافة الصعبة ، تتوقف في حلق الطالب الذي لا يستطيع ابتلاعها ، نشوّه مذاق اللغة لديه إلى الأبد ، ونحن عندما نقوده إلى التراث كرهاً أو واجباً نخاطر بأن نجعله (يحمل أسفاراً) دون أن يتنبه جيداً إلى قيمة الكنوز التي تحتويها ، وأن يكون عرضة لانطباق التشبيه القرآني المشهور عليه .

☆ إن الدعوة إلى التدرج في تعليم العربية ، والانطلاق مما يألف التلميذ في لغة حياته ـ وهي تشكل مستوى من مستويات العربية ـ إلى ما هو أقل ألفة إليه ، والانطلاق من التمكن من اللغة الفصحى المعاصرة التي يكتب بها الروائيون والصحفيون والمؤلفون ويتكلم بها الخطباء والمحاضرون ، وهو مستوى ينبغي الاعتراف بأن معظم المثقفين وحملة الشهادات العليا من العرب المعاصرين لم يتمكنوا من إجادته ، إن الانطلاق من هذا المستوى إلى مستوى فصحى التراث لإجادتها والعكوف عليها على يد المتخصصين الذين ينبغي أن يقدموا رحيق جهدهم للمثقفين الآخرين ، هذا التدرج ليس بدعاً في تعليم اللغة ، فقد اتبعه الأقدمون بطرق كانت تلائم عصورهم ، ينبغي أن نتبعه بطرق تلائم عصرنا حتى وإن اختلفنا عنهم ، كانوا يتدرجون من (الكلي المجمل) إلى (الكلي المفصل) عندما ينتقلون من المتون إلى الشروح إلى الحواشي ، وأصبحت فلسفة التدرج في تلقي المعرفة في عصرنا تقودنا من الأسهل إلى السهل ومن الأقل صعوبة إلى الصعب إلى الأكثر تعقيداً وغنى ، ونحن نتدرج عادة من الجزء إلى الكل ،

ومن الأدنى إلى الأعلى ، ومن الأقرب إلى الأبعد ، وكان الأقدمون تحكمهم (نظرية السماع) في المعرفة ، وهي نظرية أفادت البشرية عصوراً طويلة ، وكانت تعتمد على تلقي المعرفة بالأذن قبل العين ، ونقلها باللسان قبل القلم ، وتقوية الذاكرة الحافظة التي تشكل جسوراً ضرورية بين الأجيال ، وفي مناخ هذا التصور استعان النحاة الأقدمون بأرفع ثقافة في عصرهم وهي ثقافة المناطقة ؛ لكي يحولوا بها المجردات إلى أوليات يمكن أن تتقبلها الأذن وتستوعبها الذاكرة ، وكانوا بهذا مجددين في عصورهم ، ويقتضي الوفاء لهم ألا نقلدهم تقليداً أعمى ، وإنما أن نهتدي بهم من خلال الاستفادة بثقافة عصرنا نحن وملاحظة المتغيرات التي طرأت على (نظرية المعرفة) ، لقد حلت العين الآن محل الأذن في ترتيب الأوليات ، وحلت المحسوسات محل المجردات في التشويق إلى عالم المعرفة ، وساعدت ثورة العلم على تحميل الضوء والصوت بمليارات جزئيات المعرفة التي يمكن أن ترصدها الشاشات أو تتلقاها الموجات ، وعدل هذا كله جوهرياً في الطرق التي ينبغي أن نحاول النفاذ من خلالها إلى قلوب وعقول التلاميذ في المراحل الأولى ونحن نقدم لهم أسس المعرفة الضرورية في مجالات حيوية في مقدمتها لغتهم القومية ، إننا نعكس مسيرة التدرج الآن عندما نهبط من العصر الجاهلي إلى الإسلامي إلى الأموي إلى العباسي إلى التركي إلى الحديث ، وعندما نتدرج من الأصعب في الأجناس الأدبية وفي القواعد إلى الأسهل ، وعندما نغفل عن سنة التطور في التراكيب اللغوية فنضعها جميعاً في سلة واحدة ويخدعنا أن نرى الفاعل فيها جميعاً مرفوعاً والمفعول منصوباً ، فنظن أنها جميعاً تحكمها كتلة واحدة من القواعد غير متدرجة ، نحاول منذ البدء أن نثبت على جدار الذاكرة قواعد إجادة اللغة بمسامير من الحذف والتأويل والتقدير والإعلال والإبدال والميزان الصرفي والصيغ المفتعلة فلا تلبث اللوحة أن تفلت من الجدار قبل أن يخرج من البيت النجار .

☆ إن هذه الدعوة تحاول أن تشارك في لفت النظر إلى شرخ رئيسي في حياتنا الثقافية مضى عليه نحو قرنين الآن منذ بدأنا ثورة تحديث التعليم في عهد محمد علي ،

وقد فصلت هذه الثورة بين التعليم القديم الذي كانت تعرفه مصر منذ مئات السنين وبين التعليم الحديث المنشود ، فتركت أهل القديم على حالهم ، لم يوفد أحد منهم لتعلم الطرق الحديثة فيما عدا الشيخ رفاعة الذي سافر مرافقاً للبعثة لا مبعوثاً ، واختير أهل التعليم الجديد غالباً من المتمصرين لا المصريين ، وترك ذلك ظلاً في النفوس والعقول مؤداه : أن إجادة اللغة العربية مطلب يعنى به أهل الثقافة القديمة ، ولا تمثل لصاحب الثقافة الحديثة إلا مطلباً قشرياً ، وهو تصور لا تعرفه اللغات الحية الأخرى ، التي لا يتنازل فيها الطبيب والمهندس والصيدلي والكيميائي والتاجر والصانع عن حقه الأساسي في معرفة القدر الضروري العام من الصحة اللغوية لكي يتمكن من التعامل بلغته القومية أداء واستقبالاً دون إحساس بالعجز أو التقصير ، وقد سبق أن أشرت في سلسلة من المقالات السابقة بالأهرام إلى الدور الذي قام به علي باشا مبارك في محاولة معالجته لهذا الشرخ من خلال إنشائه لدار العلوم سنة (١٨٧٢) وإلحاق الصفوة من أبناء الأزهر الشريف بها وتدريس العلوم الحديثة لهم ، وينبغي أن يكون من أهدافنا القومية اليوم وضع خطة علمية للقضاء على هذه الازدواجية ، والابتعاد بإجادة اللغة عن أن تكون مجرد (كهنوت) يصل إليه بعض المتخصصين وحدهم ، وإنما ينبغي أن نعمل على أن تكون المعرفة اللغوية في مرحلتها الأساسية متاحة لكل مثقف عربي ، وأن نخلي الطريق من كل عقبة تحول دون تحقيق هذا الهدف .

☆ إن جزءاً من سلبيات الحوار ونحن نناقش قضايانا القومية ، أننا نسارع في البحث عن المتهم لا لكي تحلّ المشكلة بل لكي يبرئ كل منا نفسه ، فإذا كان لدينا ضعف في اللغة وجهنا اللوم إلى التلميذ الكسول ، أو المدرس غير المخلص ، أو الإدارة التي لا تخطط ، أو المناهج التي لا تراجع ، أو ولي الأمر الذي لا يراقب ، والواقع أننا جميعاً متهمون ، ويحسن بنا أن نتحاور قومياً ـ وعلى كل المستويات ، بغية الوصول إلى تحديد مواطن الخلل ، والوصول إلى تصور وسائل المعالجة تفكيراً وتنفيذاً ، وعلينا أن نتذكر النتائج المروعة التي بدأنا نعاني منها على كل المستويات نتيجة لذلك الخلل بما في ذلك

المستوى الاقتصادي ، فقد أشارت الإحصائيات التي نشرت مؤخراً إلى أن كارثة (الدروس الخصوصية) تستنزف من دخل الأمة المصرية ستة مليارات من الجنيهات كل عام !!

وعلينا بعد هذا ألا نكون متفائلين دائماً ونسعد بقراءة إحصائيات أُخرى ربما تكون أكثر تهدئة للأعصاب ، وقد يكون من الملائم أن نسأل أصحاب اللغات الحية الأخرى الذين لا يحدثون هذه الكوارث سؤالاً بسيطاً جداً ، ما الطريقة التي تعلمون بها أبناءكم لغتكم القومية التي تكون أحياناً أصعب من لغتنا ؟

وعلينا أن نصغي جيداً للإجابات ، وأن نحللها ، وأن نراجع في ضوئها مناهجنا ، وألا نتردد في ذلك أبداً ، رعاية للألفة والعادة ، أو استجابة لصالح فرد أو طائفة ، أو خشية من إغضاب التلاميذ أو أولياء الأمور أو المدرسين والموجهين أو النحاة والبلاغيين أو السائلين أو المسؤولين ، فالقضية متعلقة بشخصية الأمة المهددة بالامّحاء ، لا بلغتها المهددة بالضعف والفناء فحسب .

للمسألة سبعة وجوه ...!![☆]

لم أرد بعنوان هذا المقال الأخير من تلك السلسلة أن أصب مزيداً من الغَوْل على الجرح المفتوح ، ولا من الزيت على النار ، أو أن أشير إلى مسألة تعددية أوجه الصواب المحتملة أحياناً في العبارة الواحدة ، وهو نهج يشيع في كتب النحو المتعمقة ، ويفتح الباب لكثير من ألوان التأويل ، ويعطي نصيباً من الصحة لكل وجه من الأوجه المتعارضة اقتداء برواية نادرة أو لهجة غير شائعة ، ويصيب بالاضطراب معنى الحد المتفق عليه من السلامة اللغوية ، وهذا النهج لحسن الحظ لا يصل منه إلا رذاذ قليل لكتب مرحلة التعليم العام للغة التي نحن بصددها .

وإنما أردت على العكس من ذلك أن أنتصف قليلاً لحراس اللغة الذين نأخذ عليهم أحياناً بعض المبالغة المنفردة في التشدد ، وإن كان هذا لا ينفي الدور الرئيسي والهام المنتظر منهم ، وأن أبين أن هناك جانباً آخر مقابلاً لا يقل خطورة على اللغة ، إن لم يزد وهو جانب الإهمال في مراعاة عناصر الصحة والتراخي في مواجهة الأخطاء وسوء الاستعمال ، وربما أمكن أن نفتح باب المناقشة حول هذه المخاطر إذا تأملنا في علاقة اللغة بحياتنا من ثلاث زوايا :

زاوية العنصر الحضاري : واللغة من هذه الناحية عنصر من عناصر المعرفة والثقافة المتعددة التي تتولى المراحل التعليمية الأولى ؛ تمهيد الطريق نحو التعرف عليها ، وتشربها والتفاعل معها ، والعمل على الوصول بها ومن خلالها إلى نتائج ملموسة في تشكيل الفرد المتحضر الذي يسهم في وضع مجتمعه في طبقة من طبقات التصنيف

(☆) جريدة الأهرام ١٩٩٦/٥/٣١ .

الحضاري ، ولا يكون معيار استيعاب هذه العناصر ، وفق هذا التصور الحضاري ، اجتياز الامتحانات أو زيادة أعداد الخريجين ، وإنما درجة الأثر الملموس للتعليم في المجتمع وهي الدرجة التي يزهو بها الأمريكيون أحياناً على الأوروبيين ، ويهز اليابانيون رؤوسهم في ثقة وتواضع وهم يلاحظون أن تلاميذهم يتفوقون بدرجة أو بأخرى في استيعاب روح بعض جوانب المعرفة على الطائفتين معاً ، وهي الزاوية التي ينبغي ألا تكون بعيدة عن حساباتنا ونحن نتساءل عن سر رجحان كفة مليونين من جيراننا عن مئة ضعف يحيطون بهم ، ومع التسليم بأهمية العوامل المساعدة عندهم ، فإننا ينبغي ألا ننسى عدم العناية بالعوامل الذاتية عندنا وفي مقدمتها ضرورة تجاوز المفهوم السطحي إلى المفهوم العميق في عالم المعرفة والثقافة ، وعلينا في هذا الإطار أن نتساءل عن القدر الضروري الذي يلم به المثقف العربي العام من اللغة العربية ، وعن القدر المفيد الذي ينبغي أن يتعمق فيه المثقف الخاص وإلى أي حد يستجيب هذا القدر للتصور الحضاري المطروح ؟

زاوية العنصر التعليمي : وهي زاوية نحتاج فيها إلى كثير من الحوار الجذري ، وإلى مزيد من التنسيق بين وسائل توصيل المعرفة في الصحيفة المطبوعة ، والكتاب المصور المقروء والبرنامج الإذاعي المسموع ، والصور المتحركة المرئية والمنهج المدرسي والكتاب ، ولعب الأطفال ومحاورات الكبار ، وهذه الوسائل على تعددها ، وعلى تملكنا للكثير المفيد منها يبطل بعضها عمل بعضها الآخر ، في غياب خطة كلية متناسقة الأجزاء لتعليم اللغة الصحيحة والاستفادة منها عنصراً في بناء الشخصية القومية ، لقد ثبت أن لغة الرسوم المتحركة شديدة التأثير على الأطفال ، وأن كثيراً منهم يستطيعون محاكاتها في يسر عندما توجه لهم بالعربية الفصحى الميسورة ، ويزداد تأثيرها عندما تكون النماذج البشرية التي تجسدها هادفة إلى بناء جانب إيجابي في الشخصية ، ونحن فيما أظن ، نهمل توجيه هذه الطاقة في بناء السلامة اللغوية ، ولا نحاول أن نمتد ببصرنا إلى مجال صناعة لعب الأطفال ، والكتاب المصور ، والشريط المسجل والأغنية الخفيفة

لنسرب من خلالها ما نود له الاستقرار على لسان الطفل وذاكرته في سهولة ويسر . ونحن أحياناً نخفف من خطر الريح العاصفة التي هبت على نظرية (المكان) في تلقي المعرفة عندما زاحمت بعض (الأماكن) الفصل المدرسي المهيب ، بمقاعده ونظام الحركة والسكون فيه وموقعه من ساحة رفع العلم ودق الناقوس وعلاقته بزمن الحيوية والعمل في الصباح وما يحيط بذلك كله من مناخ (التعليم) زاحمته في هذا كله نظرية (المكان) في الدروس الخصوصية ، المقاعد في حجرات الطعام ، والتراص في مداخل البيوت ، وأماكن انتظار السيارات ، إلى جانب القفز على ساعات الليل والنهار المختلفة بدءاً من مشارف الفجر حتى ما بعد منتصف الليل ، واللهاث المستمر على درجات السلالم لمدرس يحمل في حقيبته نسخاً من (تذكرة داوود) التي قد تفيد ملخصاتها في كل شيء بما في ذلك اجتياز الامتحان بنجاح ، ولكنها لا تفيد بالتأكيد في الاقتراب من الروح العميقة للثقافة والمعرفة التي أشرنا إليها في فقرة سابقة .

إن الخلل في (المكان) واكبه كذلك خلل في نوع المعلومات الأساسية التي ينبغي أن يزود بها التلميذ فلم يعد الاهتمام منصباً على تنمية القدرات الأساسية له قراءة وكتابة ، واختفى زمن (المطالعة والإملاء والإنشاء) ، وأصبح كثير من الناس لا يربط بين علامة الفتحة أو الكسرة أو الضمة وطريقة نطق الحرف المصاحب لها ، وحل محل هذا كله نوع من (شطائر) المعلومات السريعة التي يتوقع المدرس الحصيف أن تكون موضع امتحان ، ولا يعبأ الطالب المتوسط بها لأن مجمل درجاتها في ميزان النجاح أو التفرد تتساوى مع درجات مادة إضافية أخرى سهلة التحصيل ، بل إن بعض الفروع مثل مادة (الدين) تكفى مراجعته ليلة الامتحان ذاتها لأنها لا تؤثر في المجموع !

وكل ذلك من شأنه أن يشكل درجة الاهتمام ودرجة التحصيل في هذه المرحلة التي تمثل قاعدة الثقافة والمعرفة العامة ، ويتكون من خلالها الحب أو النفور لفروع العلم المختلفة ، وجزء من مهمتنا أن نجعل منها منطقة جذب يلتقي فيها الناس جميعاً حول

لغتهم القومية ، ويتفرعون بها ومعها إلى حقول التخصص الأخرى دون أن يتركوها على أعتاب التخصص ، أو يديروا ظهورهم إليها عندما يواجهون الحياة ، وينتهي بهم الأمر إلى إهمالها أو معاداتها ، وحتى عندما ينتهي الأمر ببعضنا إلى حب (اللغة الجميلة) على الرغم من العقبات المطروحة فإننا قد نلجأ إليها مثلما نلجأ إلى « العباءة الفضفاضة » بمعنى أننا لا نفكر من خلالها ، ولا يتلاحم لدينا التفكير والتعبير ، وإنما نفكر أولاً إذا فكرنا ، ثم نستعير الثوب الجميل ، وقد نكتفي أحياناً باستعارة الخطوة الثانية دون الأولى ، ومن خلال هذا تضعف الصلة بين (الكلام الجميل) و (الكلام المفيد) ، ويكثر إنتاج الخطب والتصريحات والتعبيرات والكتابات التي تقل فيها الأفكار إن وجدت ، أو يتأثر بها السامع والقارئ دون بحث عن قضية الأفكار ! أفلا يدفعنا هذا لأن نضع في برامج تعليمنا مواد رئيسية لتنظيم فن الكلام وربط التفكير المنظم بالتعبير الدال الدقيق ، بدلاً مما نعلمه لأبنائنا من البحث عن (سر الجمال) غير الموجود وعن الكنز المفقود !

زاوية الاستعمال الحي : لا يمكن للغة أن تنمو في أي مجتمع من خلال حفظ قواعد النحو والصرف وحدها ، وإنما يتم النمو من خلال النموذج الحي المتطور ومن خلال امتزاج حاجة الحياة للغة وحاجة اللغة للحياة ، ومن دون هذا الامتزاج تنسحب اللغة إلى مدارج الذكريات ، وتصبح في عداد الآثار كما حدث مع لغات كبرى كثيرة ، وعلاقة اللغة العربية بالحياة المعاصرة تتمثل في جانبين ، جانب إيجابي يمكن أن يساعد اللغة على تقديم نماذج شديدة الحيوية والتجدد ، وجانب سلبي يمكن أن يهدد اللغة بخطر (فقدان المناعة) وتآكل الأطراف ومسخ الهوية .

أما الجانب المؤهل لأن يكون إيجابياً فهو استخدام اللغة الفصحى في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ، وهو استخدام أتاح للعربية الفصحى قدراً واسعاً من وسائل الاتصال بالناس عامة لم يتح لها في أي عصر سابق بما في ذلك عصورها

الذهبية أيام الخلافة العباسية ، فـالفصحى في تلـك العصور كانت متـداولـة في مجالس العلمـاء والأدبـاء ومـدونـة على صفحـات المخطوطـات التي لا تصل إلا إلى صفـوة النـاس ومتعلميهم ، وربما كانت تمر الشهور على عامة النـاس فلا تـدفعهم حـاجـات الحيـاة لأن يسمعوا بـالفصحى فضلاً عن أن يتحـدثوا بهـا ، لكن أي عربي في عصرنـا حتى ولـو كان أمياً ، تمر على أذنيه وأمام عينه على مدار الساعة نشرات الأخبار ، وأحاديث الوعـاظ ، وتعليقات الساسة ، ومتابعة بعض (التمثيليات) المكتوبة بالعربية الفصحى المعـاصرة ، وذلك من شأنه أن يوجد مناخاً تستطيع العربية أن تنتعش فيه باعتبارهـا لغـة حيـة ، وليست مجرد لغة تاريخية ، لكن النجـاح في هـذا المجـال يتطلب منـا أن نحسن اختيـار النماذج التي تؤدي دور (الممثل) اللغوي الذي يمكن أن يقلد ، وما زال تشكيل المستوى اللغوي لأهل الإعلام عندنا يتم من خلال المواهب الشخصية والاجتهادات ، بل وما زال هذا المستوى نفسه يتم التسامح فيـه أحيـانـاً مراعـاة لمواهب أخرى ! ولو أننـا تحـاورنـا جيـداً حول المستوى اللغوي اللازم لهـذه الوسـائل المؤثرة ، ولم نجـامل في ذلـك أحـداً ، لحظي جيلنـا بمئـات النماذج المؤثرة ، التي قـد يتجـاوز تـأثيرهـا جهـود آلاف المـدرسين المجتهدين لأنهم يؤثرون حباً لا كرهاً .

أمـا الجـانب السلبي الـذي يهدد اللغـة العربيـة بخطر (فقـدان المنـاعـة) وتـآكل الأطراف فيتمثل في الاجتياح الشديد الذي عرفتـه اللغـة في السنوات الأخيرة للكلمـات الأجنبية التي تكتب بحروف عربيـة ، وتجعل من وجـه مـدينـة كالقـاهرة أكبر مـدينـة تكلمت العربية على امتداد التـاريخ كلـه ، وجهـاً مملوءاً بـالبثور والنـدوب ، لا تعلم إن كانت اللغـة التي تضـاء بـالنيـون على واجهـات المحـال تنتمي إلى لغـة (الهـوسـا) أو إلى (السواحليـة) أو غيرهـا من اللغـات الإفريقيـة والآسيو يـة التي تكتب بحروف عربيـة وتحتفظ بنطقها المحلي ، وإلا فما معنى أن ندمر خلايا اللغـة في أذهـان النـاس من خلال (عنتركو) و (عو يسكـو) و (حسنكـو) أو يفتـح النـاس عيـونهم على (ثري أم) ، (سكس إف) ؟؟؟؟؟ ونحوها من التقاليع التي امتدت إلى الأحياء البلـديـة ، فجعلت

الكهربائي الطيب الحاج سكر يكتب على بطاقته (شوجر للكهرباء) ، وينافسه الترزي المقابل له فيكتب على واجهة محله (شحته كاجوال) ، وهذه مهزلة في حق اللغة ، وحق الشخصية القومية ، والذوق العام يمكن إيقافها بقرار من المحافظ يمهل فيه هذه اللافتات فترة محددة ، تسترد خلالها وجهها العربي في أكبر مدينة عربية أو تزاح من أماكنها ، وقد طبقت هذه التجربة الحاسمة في مدينة مسقط بسلطنة عمان ، وسرعان ما استعادت المدينة وجهها العربي في أسابيع قليلة وتوقف بعدها نزيف التآكل والتداعي لجانب من صورة اللغة القومية في عيون أبنائها . وإذا كانت هذه الظاهرة تشيع على نحو خاص في المحلات التجارية ، فإن من المفارقات المحزنة المضحكة أن تكون كلمة (محل تجاري) في الفرنسية (Magasin) مأخوذة من كلمة (مخزن) العربية التي كانت وما زالت تستخدم بهذا المعنى في بعض البلدان العربية .

لقد كان الجنرال ديجول يعتقد أن السماح بتداول الكلمات الأجنبية خيانة للشخصية الوطنية ، وكان يعيب على الفرنسيين في خطبه الرسمية استخدام كلمة (ساندوتش) لأنها إنجليزية ويدعوهم إلى إحياء الكلمة الفرنسية (Casse Croute) ونحن بحاجة إلى عشرات صيحات التحذير وإلى مزيد من النقاش والحوار ورسم الخطط وتنسيق الجهود المتناثرة وإخلاص النوايا لإنقاذ لغتنا من الإفراط والتفريط قبل فوات الأوان .

الحــوار

بل : إنقاذ العامية والفصحى .. وعقلنا .. معاً (١ ـ ٢)

أ . د . مصطفى ناصف

بل : وإنقاذ اللغة من (التقادم) وإهمال المستقبل !

أ . د . مصطفى ناصف

النحو العربي بين أعدائه من الداخل والخارج

د . البدراوي زهران

براءة النحو وضرورة تحديد المتهم

د . فيصل عبد السلام الحفيان

حول إنقاذ اللغة من أيدي النحاة وإنقاذ الدارسين من انفصال التشريع عن التنفيذ ؟!

أ . د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي

نعم لإنقاذ اللغة من مثل : المسائل العشر .. المتعبات إلى الحشر

أ . د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي

لغتنا وحماية الفكر القومي

د . محمد الجوادي

حول إنقاذ اللغة : (تعقيب) لا (تثريب) ..

١ ـ بل إنقاذ العامية والفصحى .. وعقلنا .. معاً[☆]

أ . د . مصطفى ناصف

مع بدء مناقشة الأفكار المهمة التي طرحها د . أحمد درويش خلال الأسابيع الماضية حول (إنقاذ اللغة) الفصحى يطرح أستاذنا الكبير الدكتور مصطفى ناصف القضية الرئيسية ذاتها قضية تدهور مستوى التفكير العام في مجتمعنا ، أو تدهور منظمة (التفكير ـ اللغة) عندنا ، ويطرح الدكتور ناصف القضية ذاتها من زاوية أخرى بالغة الخطورة : إنقاذ لغة الكلام أو العامية وبالتالي إنقاذ منظومة(اللغة التفكير) الحاكمة في والمعبرة عن ممارستنا للحياة اليومية . والمناقشة مستمرة .

« الثقافة»

لا أريد أن أتحدث في هذه الكلمة عما نسميه اللغة الفصحى ، أريد أن أتأمل في لغتنا العامة أو العامية ، وماذا ترى فيها ؟ أواثق أنت أنها بخير وعافية ؟!

أما أنا فمرتاع أراها هابطة أو عاجزة ، لننظر إلى النقاش الكثير الذي يجري بيننا في الراديو والتليفزيون أو يسجله الصحفيون تسجيلاً أميناً من الصعب علي أحياناً أن أفهم فهماً دقيقاً ما نريد أن نقوله ، لغتنا عجيبة يملؤها التردد أو التقدم البطيء في بناء الجملة ، فإذا تقدمنا لم نستطع أن نمضي مضياً سهلاً ذلولاً ، سرعان ما نتأخر وتستحيل

(☆) جريدة الأهرام .

الجمل على هذا الوجه إلى مزيج من التقدم والتأخر لا نكاد نجمع أمرنا ، ولا نكاد نشعر أن اللغة يسيرة ، أو أننا نملكها . لغتنا العامية لا الفصحى باهتة أو مضطربة وأخطر ملامحها أنها ـ إذا دققت ـ تمتلئ بما يسميه النحاة (الأسماء) . الأسماء والأوصاف وما إليها تأكل حظ الأفعال أكلاً . ودلالة هذه الظاهرة خطيرة ، إن حياتنا ثابتة أو يراد لها مع الأسف ـ إذا صدقنا اللغة ـ أن تكون ثابتة على نحو ما تجد في صيغة الأسماء .

والمهم أنني أشعر أن عاميتنا ليست مقنعة ومع ذلك فهي تترك تأثيراً غريباً في كلام الفنانين والشعراء المعاصرين أحياناً .

يجب أن نتولى اللغة العامية بالرعاية أو الدراسة فقد استحالت استحالة مدهشة أصبحت صورة من تواضع عقولنا ، وعزوفنا عن التأمل ، الناس يتحدثون عن علاقتنا باللغة الفصحى ، يشكون أو يبكون أو يغضبون ، وأنا أريد أن أمد أطراف الشكوى ، وأن أزعم أن أمراً خطيراً قد أصاب لغة الحياة اليومية ولغة الأحلام ، ولغة الذين يتناقشون فيما أهمهم وما أحزنهم ، أنا لا أبرئ نفسي ولا أقف موقف المعلم أريد فحسب أن أكون أميناً في وصف صورة عقولنا وأريد أن يصبر القارئ العزيز معي .

لغتنا العامية تتهاوى وتتفكك وإذا تناقشنا ـ وما أقل ما نفعل ـ ذهب كل واحد في طريق ، ليس الموضوع مسؤولاً وحده عن التشتت ، المسؤول هو عقل المتكلم أو لغته ، فلست أرى فرقاً بين الكلمتين ، وأنا أعلم أن القارئ لا يريد أن يرهق نفسه ، وأن لديه ما يكفيه من مشقات ، لكن اللغة العامية المعاصرة تستفزك استفزازاً غريباً ، انظر إلى (النحو) الذي نستخدمه في حياتنا المألوفة حين نتحدث فتراه ضئيلاً أو نحيلاً شاحباً لا يكاد يتجاوز شيئاً قليلاً مما تعلمناه في المدارس . هل ترانا مثلاً نستعمل ما نسميه الحال والتمييز ، هل توافقني على أن كل شيء في بنية اللغة العامية المعاصرة يأخذ طابعاً بسيطاً قوامه الإضافات أو التراكمات الهشة المتلاحقة ، وحداتنا التعبيرية ساذجة ،

ومع ذلك فإن لها سلطاناً غريباً على بعض الكتاب الذين يتعشقونها ، ويحذقونها فيمتعوننا ثم ما نلبث أن نشعر بأن الذي أمتعنا قد أضر بعقولنا .

لقد هوت لغتنا العامية ، ليست اللغة العامية في العصر الحديث صورة واحدة أو مستوى واحداً ، لدينا عاميات بعضها أفضل من بعض ، العامية التي عشنا عليها صغاراً كانت فيما أعتقد أصح وأرقى من عامية هذه الأيام ، مالنا ننكر هذه الحقيقة .. هناك شواهد كثيرة مفزعة انظر إلى المعجم المستعمل أو الغالب الآن فتراه محدوداً جداً ، وربما كانت كلمة (ماشي) أكثر الكلمات شهرة أو تداولاً ربما تدل هذه الكلمة على أنا لا نريد أن نتحاور أو أن نستوضح ، أو أن نكوّن معاً فكرة وإذا تركت كلمة (ماشي) ، فترى كلمات أخرى شائعة ليس من بينها على كل حال ما يتصل بالعمل العقلي أو الترفع ، ولا أريد أن أفزعك فكلمة مثل الإخلاص أقل شيوعاً ، فإذا تركت معجم اللغة وتأملت في نحوها أو قواعدها وجدت هذا التفكك والتعثر والإقبال والإدبار وتجشم المشقة والاكتفاء بالكلمة دون العبارة .

مغزى هذا كله أن اللغة العامية في معجمها وتراكيبها تكاد تفضح السر ، نحن لا نعبأ بفكرة النمو ، فإذا أخذك الريب فاستمع إلى عاميات أخرى في الراديو هذا فرق كبير .

مشكلة اللغة فيما أعتقد هي مشكلة العزوف عن إعمال العقل ، الناس الآن لا يريدون أن يتكلموا ، نحن نريد الصمت أو أداء عمل آلي ، وقد نريد مع الأسف اتقاء شر أو كيداً مستتراً ، أتظن هذا كله يساعد اللغة ؟

نحن الآن نحارب اللغة حرباً مستمرة ، إننا أكثر ميلاً إلى استعمال اللغة في أضيق الحدود ، نحن مشغولون بالتليفزيون ، الصورة أهم عندنا من العبارة والمفاجآت وغرائب الأحداث ، كل هذا لا يؤلف لغة وإنما يؤلف صمتاً وقطيعة . اللغة العامة إذن مظهرها

الجمل المتقطعة أو القطيعة بين النـاس ، الكلام قليل والـذين يتنـاقشون هم كبـار السن الذين ربوا على لغة أخرى ذهبت .

ما أقل الجهد الذي بذل في دراسة اللغة التي نعيش عليها لقد غاب عنـا شيء كثير : إننا لا نصنع شيئاً من خلال اللغة .

إن صناعة المواقف الآن ليست رهينة باللغة ، الناس يعتمدون أكثر ممـا ينبغي على الحركة أو الإيمـاءة أو العبث البـدني ، أو الصمت أو التوجـه نحو الانفصـال إن صح هـذا التعبير .

دلالة اللغة العاميـة تستحق التوقف أنـا لا أريـد أن أفرض انطبـاعـات خـاصـة ، حسبي أن أسأل : هل فكرة الاستغلال يصح أن تكون مفتاحاً لدراسة اللغة معجماً وبناء وتراكيب ؟

الجمل تنقبض في حياتنا اللغوية أكثر مما تنبسط ، أو تنكمش أكثر ممـا تتمـدد ، الجمل تسعى إلى الرجوع أكثر جداً مما تسعى إلى التقدم ، الجمل يعتريها في تراكيبهـا ومعجمهـا خجل ويأس وريب ، لغتنا ليست مريحة ؛ لأن عقولنا متعبة .

لقد ذهبت هيبة الكلمة ، أنا الآن أتحدث فحسب عن اللغة العامية ما سبب ضيـاع الهيبة ؟ الراديو والتليفزيون كلاهما يحارب الصمت والعزلة الطيبـة ، إن استمرار الكلام الذي ندافع عنه أو ندأب على رعايته يدمر عقولنـا ، هـذه واحـدة ، والثـانيـة أن الفرد العادي مرهق والإرهاق أكبر عدو للنفس أو اللغة .

خذ مثلاً الطالب الذي يتعلم الآن في المدرسة والمعهد والجامعة أضعاف ما تعلمناه . هـذا الطـالب يتمتـع بـذكاء غريب وقـدرة على التحصيـل والصبر ، لكنـه في حيـاتـه الشخصية وحيـاتـه العـامـة حريص على ألا يتـأمل وألا يتكلم إلا مضطراً إنـه مرهق ، حياتنا إذن موزعة بين أمرين :

التليفزيون والراديو الذي لا يكف عن الكلام .

والناس من أمثالي وأمثالك الذين عزفوا عن الكلام ؛ لأنهم عزفوا عن أنفسهم .

لا تظن مشكلة اللغة هينة الأبعاد ، نحن الذين قتلنا اللغة ، كيف نرفه عن أنفسنا ؟ وسيلة الترفية صورة جذابة ، أو حركة جسدية خلابة ، أو مواقف مثيرة ، اللغة إذن استبعدت ، نحن لا ندعم اللغة بالترفيه أو لا ندعم الترفيه باللغة .

حياتنا جمل قصيرة قليلة تتكرر بأساليب كثيرة ولغتنا مظهر إصرار سابق غريب يتجلى في هذا التكرار والتقطيع ، واختيار كلمات محددة .

نحن جميعاً نتنكر للغة لقد اجتمعت ظروف كثيرة ساعدت على هذا التنكر ، أنت غالباً لا تثق بما أقول ، ولا تصدقني ، وربما لا تصدق نفسك ، ولا تريد أن تناوشني بالكلام ، أليس غريباً أن أكثر الناس لا يتكلمون فإذا تكلمنا أخذنا نكرر صورة أو فكرة واحدة ثابتة لا نشبع منها ولا نمل .

هل ضيعنا لغتنا وسط الاهتمام بالنجاح أو المال أو اليأس أو الخداع ؟ ليس من حق أحد أن يتهم الآخرين نحن جميعاً شركاء ، إن ما نسميه تدمير اللغة أكبر اتهام لأنفسنا . إن طائفاً غريباً من الأفكار يجب أن يستوضح في هذا المقام ، أنا لا أتحدث عن محبة الشعر ووجدانه . اللغة أوسع وأعمق وأخطر من الشعر ، أنا أبحث عن لغتنا حين نتعب وحين نغضب ، وحين ننقطع عن أنفسنا ، وحين نتعثر أو نتأمل ، أبحث عن قدرتنا على الحياة ، صميم اللغة هو قدرتنا على التفكير لكن التفكير قد توهنه اللغة ، واللغة قد يوهنها التفكير ، ليس في قلوبنا حيوية عامة تجعل اللغة ملاذاً . في أوقات مضت كانت اللغة العامية صورة أخرى ، كانت أكثر نضجاً في التركيب وأوسع مدى في المعجم ، وأكثر تفتحاً على اللغات الأخرى ، وأكثر تشوقاً إلى اللغة الفصيحة أيضاً . هل أقول في شيء من الاستحياء إننا نعيش عصر خصام مع اللغة ؟ صدقني : هل تجد أحداً يتعلق بعبارة خاصة من صنعه هو ؟ هل تجد أحداً يأوى إلى عبارات في

مواقف الشدة ! لكننا الآن لا نريد أن نفهم الشدائد نريد أن نستجيب لها استجابة عضوية . التعبير العضوي مشغلة بعض الشعراء وبعض الشباب وبعض اللغة العامية ، أنا لا أخرج نفسي من قفص الاتهام ، لقد تعارفنا على تجاهل الاحترام ، والاحترام إيمان بالقواعد ، وإيمان بأن بعض القواعد خير من بعض ، والقواعد من صنع الناس أو هي صنع النمو والقواعد صمام الأمن ، وكلما كثرت القواعد أو الضوابط وتعقدت كان ذلك أدل على محبة الحرية والإبداع والتغيير .

الاحترام هو مظهر اللغة الأول ما زلت أتكلم عن اللغة العامية ، شعائر الاحترام ، شعائر لغوية ، أنا الآن أنظر إليك مرتاباً أو متهالكاً أو راغباً ، هذه مشاعر لا تحتاج إلى اللغة ، هذا ما عنيته حين قلت : إن أمر اللغة هو أمر حياتنا في أعماقها .

٢ ـ بل إنقاذ العامية والفصحى .. وعقلنا .. معاً[☆]

أ . د . مصطفى ناصف

ويستكمل الأستاذ الدكتور مصطفى ناصف ، عرض القضية البالغة الأهمية التي طرحها في الأسبوع الماضي عن أولوية (إنقاذ) لغتنا العامية الدارجة ، لغة الاستخدام اليومي ، من التدهور التعبيري ، اللفظي ، وما يعكسه من تدهور فكري ومعلوماتي .. على أساس أن إنقاذ (عقليتنا السائدة) يبدأ بإنقاذ اللغة اليومية الدارجة ، وصولاً إلى إنقاذ الفصحى ، وذلك في التعليق الأول على مقالات : (إنقاذ اللغة من أيدي النحاة) للدكتور أحمد درويش ... والمناقشة مستمرة ..

« الثقافة »

إن إصلاح النفس إصلاح لغوي ، وتربية الفاعلية تربية للغة ، ولغتنا التي نتداولها كل يوم تلقائية حسية قريبة ، لأننا لا نهتم بما دون ذلك من التروي والتفكير واستيضاح المبهم والمشكل .

نحن الآن نتفانى في اختيار ما نلبس وما نأكل وما نسكن . لكننا لا نختار اللغة التي نستعملها . لقد تغير مفهوم الاختيار تغيراً أساسياً ، لقد آمنا ـ وهذا عجيب ـ أن الاختيار مادي لا عقلي ، حسي لا معنوي ، عضوي لا لغوي .

لقد تغير مفهوم الترف : كان المترفون ونحن صبية صغار يختارون ويدققون فيما يقولون ، أما مترفو هذا الزمان فيرون اللغة رؤية أخرى .

لقد مضيت في الحديث عن اللغة العامية ، فماذا تظن موقفي من اللغة الفصيحة .

(☆) جريدة الأهرام .

أنا لا أجد خيراً في العظة والبؤس والتشاؤم ، لكنني في الحقيقة أستبطن نفسي إن صح التعبير .

لدينا بحمد الله من يحرصون على اللغة الصحيحة الجميلة ، ولكن اللغة الصحيحة الجميلة فقدت الآذان والأذهان أيضاً لماذا ؟

لقد اتسعت المسافة بين اللغة والسلوك ، اللغة الجميلة ربما لا تكون مرآة نفس جميلة ، واللغة القبيحة ربما لا تكون مرآة نفس مهلهلة . لكن شيئاً غريباً يستوقفني ، إن مواقف الناس الخلقية والنفسية تؤثر في تقبلنا لما يقولون ، ماذا تظن إذا وجدت المفارقة الضخمة بين ما نسميه جمال اللغة من ناحية وجمال الخلق والطبع من ناحية ثانية . إننا ضيعنا أيضاً هيبة اللغة الجميلة لما وجدنا أنفسنا نقول غير ما نعتقد ، لقد اقتدرنا على اللغة ، ولكننا لم نقتدر على أنفسنا ، لقد جعلنا اللغة الجميلة أو الطيبة حرفة ووقاء وأداة لما ينبغي ، وما لا ينبغي من الأهداف ، لا خير في موقف الاحتراف ، بعض الذين يستطيعون الكتابة لا ينفذون إلى أعماقنا بسهولة .

المهم أن ملاحظة الفوارق بين اللغة والشخصية قد أفسدت علينا أمر حياتنا ، لنفرض أنك أمام مقال طيب ناقد جميل ، ماذا عساك أن تقول إذا عرفت أن وراءه موقفاً غير بريء ، ولا مقتصد ولا محب ؟.

أليس هذا كله دافعاً للريب في أمر اللغة كلها إذا لم تكن اللغة أمارة عظمة خلقية فما عساها أن تكون ؟

هذه أزمة متعددة الجوانب ، إننا قد نتقن اللغة على حساب أنفسنا ، إننا لا نفيد شيئاً من فكرة تمثيل الأدوار ، لن نفيد شيئاً من لغة جميلة تخفى التستر أو الإبهام أو عنف الغضب ، الإنسان العظيم يجعل اللغة عظيمة .

إننا لا نريد من حديث اللغة أن ندافع عن الأدب والشعر والقصة والمسرحية

لا نريد خدمة الاعتراف ، إننا نريد شيئاً أهم وأروع من هذا كله ، نريد أن نتفق على أن اختيار الكلمة جزء من كرامتي ، وأن عقلي الخاص هو ثروتي التي لا أفرط فيها أبداً . أريد أن أذكر دائماً أن الكلمة مسؤولية . لا خير في رجل يعلمني اللغة دون اهتمام بعبء الحياة والشرف والضمير . أريد أن أقول لنفسي ولأولادي : اتبع نفسك ، واستفت ضميرك في كل ما تحذف وما تثبت ، لا تعبد اللغة ، ولا تعبد الجمال ، اتجه يا بني نحو الصواب ، فالصواب نفسه هو كل ما نحتاج إليه وهو الجمال ، لا تغتر بالنقد الأدبي .

ومن ذا يعلمني بعد شيخوخة طويلة أن أقدر الفرق بين الجملة والواقع ، الوقائع أكبر من الجمل والفِقر . الجمل يجب أن تتجاوز ، وأن تطرح بحثاً عن جمل أخرى ؛ لأننا نسعى على الدوام إلى الأمام .

إن الصورة ليست قاتمة تماماً ، إن ذكريات الماضي ، عن الشخصية واللغة قد تتيح لحظات من الرضا ، إن معلماً متواضعاً شامخاً صبوراً متعففاً يستطيع أن يفعل ما تعجز عنه المناهج والتقارير والملاحظات والمناقشات .

لقد تألم الصديق الدكتور أحمد درويش ، وناقش وغضب ، واستوقف ، لكن بعض القراء أذكياء ؛ لا يريدون أن ينساقوا إلى الحوار ، لا أحد يقول لأحد في هذا الزمان كلمة شكر ، فالناس يتعلمون اللغة الآن من خلال الأخذ والتحيز والاحتكار ، لا من خلال العطاء والعدالة والتقاسم ، إن اللغة لا تصلح ما أفسده الإنسان ، ولا تقاس بمقاييس رسمية خارجية اصطلاحية ، إنما تقاس على العكس في حدود الشخصية الفردية وموقفها من الحياة والناس والمصير ، إن عبارة بسيطة ، ينطق بها رجل عظيم موثوق به لا تنسى أبداً ، هل أستطيع أن أوصي الذين يضيقون بلغة الشباب . هل آمل في أن نكون أكثر حناناً عليهم ، وأكثر تفهماً لمواقفهم ، إن الحنان والتفهم يساعدان الشباب على الحياة واللغة والنضج ، لقد أدت (الفصاحة) ، وأدى (البيان) إلى نتائج عكسية في بعض الأحيان ، ربما ذكرنا في هذا المقام أن العيّ الذي نشكو منه كان ثمرة هذه الفصاحة ، ليحاسب كل امرئ نفسه .

ربما كان بعض العيّ خيراً من بعض البيان ، لكن الأدباء والشعراء النقاد قد يخيل إليهم ، ويخيلون إلينا أيضاً أن الثقافة الأدبية هالة من نور وإشراق . ألا ليت هذا كان صحيحاً . ودائماً نحن محتاجون ، صغاراً وكباراً إلى من ينبهنا إلى أن الصحة النفسية في علاقتها باللغة أهم ألف مرة من البراعة والبيان وجمال الأسلوب ، هذه قصة أخرى يحزنني كثيراً أن يفهم بعض القراء أنني عنيت في هذا المقال بأمر الجمال والنقد والأدب ، لقد عنيت بتكوين عقولنا ومخاطر حياتنا ، وأرجو أن نفيق في يوم قريب من سحر الاشتغال بالشعر والشعراء ، وسحر التسوية الغريبة بين العناية بأمر اللغة وما نسميه في لغة غريبة باسم الذوق الأدبي ! أخشى أن يكون الاحتفال بالنصوص الأدبية مبالغاً فيه ، يجب أن نعترف الآن بأن هذه النصوص لا تلقى من كثيرين سميعاً ولا مجيباً ، وأن من الصعب تكوين مثل هذه العناية الحالمة ، إن ظروف الحياة الصعبة السريعة القاسية لا تحتمل ولكننا نماري فيما نعلمه ، ويأخذ بعضنا من هذه التقاليد ، ولا نكاد ندرس استجابات الشباب الحقيقية . كيف يمكن إهمال هذه الاستجابات إهمالاً لا يكاد ينقطع ؟ كيف نتغاضى عن ذوق الشباب المتعجل القلق ، وكيف نزعم أننا نداوى ، أو نصلح دون أن نأخذ في الاعتبار هذه الكراهة التي يصرح بها غير قليل من الشباب ؟

أولى بنا أن نقلل من العناية بالأدب والشعر ، وأن نأتي البيوت من أبوابها ، وأن نفكر كيف نختار ما ندرسه في ضوء الاعتراف بحاجات الشباب المستوحاة من اعترافاتهم وضمائرهم وميولهم .

إنها لخسارة كبيرة ألا يتوافر لدينا حتى الآن دراسات منظمة متعمقة عن تفكير الشباب ، إن كل تدخل سافر غليظ في تفكير الشباب مقضي عليه بما يشبه الإخفاق ، لست أعني بداهة أن يتركوا ، أو أن نقبل دون مناقشة ما يقولون وما يفكرون فيه .

يجب ـ بعبارة أخرى ـ أن يدرس الذين يحبون الأدب ما لا يدرسه غيرهم ، ويجب ألا ننسى أن غايتنا الأولى ليست هي عشق الأدب ، غايتنا أن يصغي بعضنا إلى بعض

إصغاء أفضل ، وأن يقوم بعضنا أفكار بعض تقويماً مرناً ، لا يخضع أحدنا لغيره ، هذه مهمة ثقيلة ، لكن التعصب للشعر والأدب له منطق ومحامون وحالمون ، وربما ترك هذا التعصب آثاراً كبيرة تحتاج إلى الدراسة أيضاً لو آمنا بأن إعداد عقولنا وتربيتها شيء ، وهذا الجموح الجامح في أمر العناية بالشعر والتدريب الفني شيء آخر ، إن التدريب على التفكير غرض أول وليس غرضاً ثانياً . وعلاقة هذا التدرب باللغة هي الهم الذي لا ينبغي إغفاله وسط الانشغال المتزايد بأمر الشعر والشعراء .

لست أدري لماذا يتجافى الناس عن مناقشة هذه المخاوف والفروض .

هل صح أن درسنا في يوم ما استجابة الطلاب في الجامعات لما يقوله الأساتذة وأساتذة الأدب بوجه خاص ؟ هل يعرف الأساتذة من أمر عقول هؤلاء الأبناء ما يكفي ؟ إلى متى نشكو ونستبكي ، ونحن لا نقترب منهم ؟ إننا قد نقدم إليهم علماً لا ينفعهم . النقاش حول ما يفيد وما لا يفيد ليس بالأمر السهل .

حددوا يا سادة مشكلاتنا الأولى ، لا مشكلاتنا الثانية والثالثة والرابعة ، لقد قضينا وقتاً طويلاً نستريب فيه من عقول الشباب ، هذا جائز لا غبار عليه ! ولكنني أرى أن الوقت مناسب لكي نسائل أنفسنا ، هل أحسنا القيام بأعبائنا ؟ هل تصورنا هذه الأعباء أو اتفقنا على تصورها ؟.

هل الطلاب متهمون ونحن أبرياء ؟ هل يعرف الجامعيون الطريق ؟ إن تحولاً أساسياً في الدراسة يجب أن يقلقنا ، إن إخراج اللغة من سطوة الشعراء وقبضة محبيه وإدخالها في نطاق الآلام العامة القلقة الراغبة في مزيد من الصحو والجسارة والعناء والتأمل العلمي أولى بالرعاية ، كيف نعكف على تصورات معزولة مجردة وننسى أن الحياة كلٌّ معقد ؟ ولك أن تسمى هذا الكل باسم اللغة ، كيف ساغ لنا أن نتصور الآلاف بعد آلاف من الطلاب يتعلمون ليكونوا نقاد أدب حاذقين ، أو غير حاذقين ، اللهم اهدنا سواء السبيل ، فإننا ما ندعى العلم بشيء لا نعلمه ، وكثيراً ما نعجز عن كشف

الكاذب من الثناء ، وكثيراً ما نجادل بـالبـاطل ، ونموه على السـامع ، ونؤثر رواج القول وزينته ونرتكب في سبيل ذلك الخلط والتدليس أليست هذه جميعـاً أغراضـاً للـدراسـة أجل وأشرف من مزاعم كثيرة وأعمق تأثيراً ؟ وكيف غابت عنا ونحن نتحـدث عن اللغـة ومشكلات الحياة .

٣ - بل وإنقاذ اللغة من (التّقادم) وإهمال المستقبل ![☆]

أ . د . مصطفى ناصف

إن مشكلة اللغة يجب أن تدرس في كليتها ، وعلى أساس مكانها من تصور حياتنا المتكامل في ضوء سائر التجارب والمطالب والأهداف التي تحتاج إلى استيضاح مستمر . إن هذه الأهداف ليست لغوية بالمعنى الضيق ، فضلاً عن أن مفهوم صحة اللغة أو جمالها متغير لا يثبت على حال . وكثير من الصخب المتداول هنا لا أهمية له .

فالأجيال المتفاوتة يصعب عليها التوافق أو التنازل ، ولكن من الخير أن نعترف بقسوة التطور ، وأن نفهمه بدلاً من ضياع الوقت في الحكم عليه . لدينا موجه واسعة من التنازل عن اللغة .

ولا جدوى من محاربة هذه الموجة من موقع بعيد عنها . كثير من اللغة المعاصرة الشابة وغير الشابة لا يعترف بالإيقاع العقلي الذي امتد زمناً طويلاً في عصرنا الحديث نفسه ، وظهرت آثاره في الكتابة والغناء والتمثيل والخطابة السياسية والتلاقي الاجتماعي ليس هناك بد من الاعتراف بكثير من الظواهر ، فقد اعتمدت على مؤثرات جوهرية . ومن الحكمة أن تنظر إلى هذا المتطور من داخله ، إنه تطور قد يبدو للمتأمل غير مرغوب فيه ، ولكن النزاع حول ما يقبل وما يرفض يجب أن يدار بحنكة أكبر ، إن اللغة الآن غيرها منذ ثلاثين أو عشرين سنة ، وقد أصبحت لغة أعلام الكتابة في مطلع القرن وأوسطه غريبة الوقع . يجب إذن أن نحدد مواقع أقدامنا وتضارب حاجاتنا ، إن فض الخصومات حول اللغة لا يكون من خلال الرفض ، والتحيز ، إننا نريد أن نولي

(☆) جريدة الأهرام ١٩٩٦/١٢/١٣ .

قضية الفهم عناية أعمق . فهم اللغة في طورها المعاصر ، وفهم الحيـاة التي ينكرهـا بعض الناس الذين يعيشون وحدهم بمعزل عن التيارات الصاخبة القوية .

ومغزى هذا أن التصدّي القاسي للغة المعاصرة لا وجه له ، وأن التواصل مع أجيـال شابة أو تجـاوزت الشبـاب إلى الكهولـة يقتضي أن نفهم عنهم ، وأن نلتمس عـالمهم ، وأن نقرأ عن التطـور قبـل أن نتـولاه بـالتخطئـة ، فـلا خطـأ يمكن أن يعبر الأجيـال ، ولا صواب لدينا الآن هذا (الانقطاع) الجزئي عن اللغـة والـدنيـا والنـاس . هـذا أمر ليس من السهل المماراة فيه ، وليس من السهل تشخيصه تشخيصاً دقيقاً . من واجبنا أن نتخلى عن مقررات مصطنعة كثيرة أقرب إلى العجز عن مواجهـة الحيـاة التي تتغير تغيراً سريعاً وخطيراً .

والمسألة أننا في غمرة العزلة قـد نتصور مسـائل الأسلوب تصوراً مبـالغـاً فيـه ، إن الإحساس بالماضي والقيم والمقاومة كل ذلك يتعرض للتغير . فكيف نتظلم في اللغة ونحن على مبعدة منـه ، إننـا نهمل دقـائق المشكلات ، لأنهـا فوق طـاقتنـا . نهمل عجزنـا إذا تكلمنا ، وقدرتنا النسبية إذا كتبنـا في موضوع اختصـاصي ، وبعبـارة أخرى إن لـدينـا الآن قدراً من العيّ (الطبيعي إن شئت) ينتابنا إذا حاولنـا أن نفكر بصوت مسموع ، هناك نجد الأعراض التي أشرت إليها فنتقدم ونتأخر أليس هـذا أمراً جـديراً بـالفحص . إن التقـدم التلقـائي أو شبــه التلقــائي يتعرض للتعثر إذا تحـدثنــا في أمر يعنينــا ، ولا يستطيع اللغويون بأدواتهم أن يسهموا وحدهم بشيء كثير .

فلنكن صرحـاء ، ولنحـاول تعمـق عقـولنـا ، إن أهـدافـاً جـديـدة غير قليلـة قـد استبعدت أهدافاً أخرى أقدم ، وقد يتصل العراك هنا بمفهوم الكرامة ذاته واستحالته أو تطوره ، وقد نحتاج في تفهم لغة الحديث ـ خـاصـة ـ إلى إثـارة قضيـة التواصل ، وقـد نحتاج إلى تذكر ما لحق بالتواصل من صنعة لا يلائمها إلا الكتـابـة من حيث هي صنعـة كذلك .

وقد نحتاج إلى إثـارة حول لغتنـا لم تثر حتى الآن ، إننـا الآن أكثر اعتماداً على إدارة بعض الكلمات ، نستخفي وراءها ، أو تعفينا من التأمل ، إن الحياة الثقافيـة الآن أعمق في بعض مظاهرها مما يتصور المتكلمون في اللغة والأسـاليب ، وإن كنـا أكثر ميلاً إلى الانتقاد أو تبادل المدح والقدح ، وربما تكون مناقشاتنا العامـة ثريـة أحيـانـاً على الرغم من كل صيحات التشاؤم والسخـط ، لكن هـذه المنـاقشـات ليست تصغي ـ دائماً ـ إلى حركة الكلمات ، إن استقام هذا التعبير قل أن ننظر في الكلمـات الأسـاسيـة التي تحرك حياتنا في هذه الأيام ، قل أن نتأمل تقلباتها وعجزنا أحياناً عن ملاحقتها ، وهنا تظهر بعض جوانب الخصومة الشـاذة أو الغريبـة من التـدقيق اللغوي وسوء الظن بـه ، وهنـا لا يكاد اللغويون والأسلوبيون يقدمون إلينا شيئـاً ذا شـأن . يجب إذن أن نعترف بـأن حياتنا الثقـافيـة يمكن أن تكون أكثر سلامـاً ودفئـاً وتجنبـاً للنزال والتعصب إذا عرفنـا ما نصنعه بالكلمات الأساسيـة أو تصنعـه بنـا . النـاس يتخـاصمون كل لحظـة لأن هـذه الكلمات تتحرك دون وعي ، تتحرك كلمـة السلام والأمن والحريـة والتنوير والتطرف والتخصيص وعشرات أخرى لكن اللغويين يعيشون في دوائر ضيقـة ، ومن حـق المجتمـع علينا أن نصل أهـدافـه بعضهـا ببعض ، وأن نعرف شيئـاً عن هـذه الأهـداف من خلال حركة تراكيب اللغة ، أو حركات الكلمات الأساسية بوجـه خـاص أخشى أن يـأخـذنـا الاسترخاء إذا أثرنا قضية اللغة أو تأخذنا الحماسة الشـاذة للملاحظـات اللغويـة والأدبيـة التي قنعت بدور جانبي هامشي في حياتنا الفكرية .

قد بدأت هذه الأحاديث بمخاطر اللغـة العـامـة ، وقلت : إننـا الآن قل أن يلقى بعضنا بعضاً ، فإذا تلاقينا كان حديثنا موجزاً متقطعاً لا أثر فيـه للاتصـال والتركيب ، هذا أمر لا أدري كيف تجاهلناه ؟ إننـا على هـذا النحو ـ نهمل أنفسنـا ونهمل غيرنـا من الناس ، النـاس أدوات لمصـالحنـا وليسوا شركاء في صنع مصير مشترك لـدينـا إذن هـذه الظاهرة المفزعة ، يولي بعضنا ظهره لبعض وتتولى اللغة جانبـاً كبيراً في هـذا التـدابر ،

وهذا العجز من اللقاء ، وهذا العجز عن الحوار والتأمل واختبار الكلمات أو السيطرة عليها .

لقد بذلت جهود كبيرة في الكلام عن اللغة الفصحى الثانية التي نكتب بها ، أو نقرؤها في الأخبار والأحاديث المعدة .

إن الأحاديث التي لا تعد ولا تحفظ قد أهمل نسجها وأهملت فحواها ، هذه هي حياتنا إلى متى لا نتولاها بالدرس والفحص ، إنها أقرب إلى معاداتنا ونحن لا نشعرَ ، إن الكتابات (الفصيحة) أو الرسمية لا تترك التأثير المرجو ، هناك أفكار وتأملات خصبة تدور في الصحف أو تظهر في الكتب . ولكنها لا تعيش طويلاً في عقولنا ، أكبر الظن أن اللغة العامية وهي أقرب إلينا تدمرها أو تهون أمرها ، أعني المسافة المتزايدة بين ما نقوله وما نكتبه ضيع علينا جهودنا التي كانت خليقة بالإثمار ، في اعتقادي .

إن اللغة العامية هي مشكلتنا الحقيقية ، لقد تغير أسلوبها ومنطقها وشكلها وفحواها ، لقد انتكست انتكاسات كبيرة ، لا أحد تخيفه لغته اليومية أو يخيفه ما تعود أن يقول ، ومع ذلك كله فبعض الدارسين ينشدون الأغاني المريبة لهذه اللغة ، ويقولون في سذاجة مدهشة : إنها لغة (طبيعية) مهضومة الحق ، والمهم أن نتذكر أو أن نعي أننا شوهنا أو ارتبنا في طبائعنا ، وعقولنا من خلال هذه اللغة ، فكيف نستريح إليها وإلى المدافعين عنها ؟ إن المسافة بين لغة المثقف في كتابته ولغته في حياته اليومية قد تزايدت تزايداً ملحوظاً ، وهذا أمر له دلالة ومخاطر أقرب إلى انفصام الشخصية ، وما يشبه تيسير التظاهر ، مخاطر ربما يدركها الذين عاشوا أجيالاً متنوعة قديمة وحديثة ومعاصرة ، ولكن تاريخ العامية كتاريخ الفصحى الحديثة غير معلوم ، فضلاً على أن تصورنا للعامية والفصحى معاً سهل إلى حد مذهل ، وآية ذلك أن المناقشة لا تكاد تسلم إلى مدى اهتمامنا بالحياة ، ونوع هذا الاهتمام ، إليك مثلاً الانفعالات الصاخبة ذات التأثير القوي في كتاباتنا في الصحف والمجلات وبعض

الدراسات ، وتمثل هذه الانفعالات - أحياناً - في مواكب الكلمات المجردة العالية الرغبة التي تتابع في أبهة دون حذر ، وقد تخفى هذه الكلمات ما نريد ، أو ما لا نريد ويترتب على هذا كله فوضى في تناول معجم الحياة السياسية والفكرية والجدل ذي الوجوه السبعة .

النحو العربي بين أعدائه من الداخل والخارج[☆]

د . البدراوي زهران

(أنقذوا اللغة من أيدي النحاة) ، كان عنواناً لمقالين نشرتها صحيفة الأهرام للأخ الصديق الدكتور أحمد درويش وتسيطر على القارئ حيرة إزاء ما يجسمه هذا العنوان في ذهنه .. حيث يلقي في روعة أن ضحية تتململ في محاولة للخلاص من أيدي عتاة جبارين يقبضون بكل قوة على عنق ضحيتهم مصرين على ألا يتركوها إلا وقد فارقت الحياة .

إن أي شاب متخصص في قسم اللغة العربية في أي كلية من كليات الجامعات المختلفة يكفيه هذا العنوان ليخلق بينه وبين النحويين قطيعة تصرفه عن النحو وكتبه ، ولا تفلح كل الوسائل في إعادته إليها .

ويتبادر سؤال : هل هناك لغة بلا نحو ولا نحاة ؟ هل يخفى على أحد أن اللغة مغلقة على معانيها حتى يجيء النحو فيفك الإغلاق ؟

هل اللغة شيء والنحو شيء آخر ؟

المهم أننا نقرأ ما كتبه الدكتور فلا نجد علاقة بين ما يكتبه وبين النحاة ..

ونتابع القراءة ، ونظل نتابع فنجد أن ما يكتبه خاص بمناهج وطرق تدريس اللغة ألا يعلم الدكتور أن هذا غير ذاك ، وأن هناك أقساماً متخصصة في طرق التدريس ومناهجه ، وهناك بحوث معمقة في ذلك .

(☆) الوفد ١١/٥/١٩٩٦ .

الدكتور يتحدث عن وسائل خاصة بتعليم اللغة وعن مدخل لمواجهة الخلل في تعليمها وبطرح جزئيات منهج لتعليمها ويتحدث عن التدرج في وسائل تعليمها .. ويشيد بالحالة التي وصلت إليها في حلقة من حلقات تعليمها . ويعرض ما ينبغي أن يكون في المرحلة الأولى والمرحلة الإعدادية ، ويذكر الأضرار التي تحدث من الخلط في المناهج وطرق التدريس ، وكلها خاصة بالتدريس ، ثم هو ينادي بأن جزءاً من جهود علماء النحو المعاصرين ينبغي أن يصب على إجراء دراسات وصفية إحصائية لظواهر التراكيب إلى آخر ما جاء من كلام فضفاض .

ما علاقة ذلك بالنحاة ؟ ألا تعلم أنك تتحدث عن مصممي المناهج الدراسية ومؤلفي كتبها ؟! فيما تظن أنك تتحدث فيه عن النحو !!

تستهوينا العناوين البراقة والمجازات الخالية من المضامين ، صحّح العنوان .

فمن قديم والدعوات الصادرة عن النحو تحدث هدفها في عقل الأمة ، ونجني نحن اليوم ثمارها تخلفاً وضياعاً وعجزاً .

فقد انخدع بها بعض الشيوخ مثل أبي بكر الخوارزمي وابن مضاء ، وهوجمت نظرية العامل إلى أن كان عصرنا ، وظهر علم اللغة الحديث ، وطالعنا علماء الغرب بنظرياتهم وعلومهم ، وإذا بنظرية العامل تتبوأ مكانتها وتقام على أسسها نظرية النحو التحويلي التوليدي ، وينص تشومسكي على ذلك صراحة وأن نظريته مأخوذة من أعمال نحاة العربية القدماء !!

والأكثر أنه يظهر من بين فروع علم اللغة الحديث علم (stylisties) ، وإذا بهذا العلم هو « علم معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات » ، الذي وضعه عبد القاهر الجرجاني منذ قرابة الألف عام .

كما يظهر في الدراسات اللغوية الحديثة علم (stslisties) وإذا به العلم المنبثق عن نظرية علم معاني النحو .

ونطالع كذلك اليوم عند علماء اللغة الغربيين نظرية (البنيات الشكلية) ، التي تحاول التوصل إلى إيجاد علاقة من الناحية الشكلية الصوتية والصرفية والجانب الدلالي وإلى الآن لم يتوصلوا إليها ، لأن لغاتهم لم تسعفهم على حين سجلها علماء النحو العربي بكل أبعادها في مباحث الصرف والنحو وهي مكتملة في خصائص ابن جني !!

أما يكفي أننا نقف اليوم عاجزين عن وضع مصطلح لمخترع بسبب الصد عن النحو .

أما يكفي أن جامعاتنا خلت من الإبداع والابتكار بسبب الصد عن النحو .

فما أحوجنا إلى العودة إلى أعمال نحاة العربية يرحمهم الله ففي جهودهم الابتكار والإبداع والشموخ .

براءة النحو وضرورة تحديد المتهم(*)

د . فيصل عبد السلام الحفيان

أثار د . أحمد درويش بمقالاته (إنقاذ اللغة من أيدي النحاة) على هذه الصفحة قضايا عديدة ، وكان العنوان مجرد حجر صغير ، رمى به في بركة ، فانداحت بتأثيره دوائر واسعة ، أكبر وأقوى من الدائرة الصغيرة الأولى ، لم يكن موضوع النحو والنحاة سوى (عكاز) توكأ عليه ، ثم رمى به غير آسف ليبحث موضوعات أخرى ، جذبت إليها مختلف الآراء والتيارات والأفكار ، التي تناولت مسائل عميقة ومثيرة حقاً ، وكان من أمتع ما قرأت ما كتبه د . مصطفى ناصف ، برؤى نافذة ، وربط ذكي لنقاط في غاية الأهمية والخطورة .

عرفت د . أحمد في (نيسان/أبريل) الماضي عندما استعنت به في الندوة التي نظمها معهد المخطوطات العربية احتفالاً بعيده الذهبي (مرور ٥٠ عاماً على إنشائه) وتحدث عن رؤيته لجذور أزمة التراث العربي ، والعمل من أجله عرفته هادئاً دمثاً ، وعرفته مقنعاً قوي الحجة ، وهذا ما شجعني على كتابة هذه الخواطر ، دون خوف أو وجل من أن تتعرض الصلة الوليدة لهزة .

وباعتباري نحوياً صغيراً من أولئك الذين يرى د . أحمد أن اللغة قد وقعت في شركهم ، وينبغي إنقاذها منهم ، فإني سأكتفي بإثارة نقاط محددة ، تتعلق باللغة والنحو ، على أن كوني نحوياً ليس هو الدافع الجوهري ، السبب الحقيقي هو مجانبة ما تضمنته المقالة للصواب ، والانسياق وراء أطروحات وأقاويل ، لا تهدف إلا إلى الهروب من المشكلة ، والتستر وراء علل وأسباب لا علاقة لها بالحقيقة ، إن اللغة ليست

وحدها في حاجة إلى إنقاذ ، بل إن النحو نفسه في حاجة إلى إنقاذ ، وإنصاف ، أما الإنقاذ فإن النظرة إليه ، وخاصة من المثقفين المتصلين بالثقافة الغربية ، فيها الكثير من الظلم والإحجاف . وأما الإنصاف فإني أعتقد صادقاً أنه ليس المتهم في قضية اللغة ، كما حاول د . أحمد أن يصور ، ليس متهماً أولاً ، ولا ثانياً وحتى لا يكون الكلام مرسلاً مطلقاً على عواهنه من دون حجة أو دليل ، فإنني أقول :

أولاً : القضية في رأيي فيها متهم واحد رئيسي هو ، « النظرة الدونية للغة العربية » وأقصد هنا اللغة بكل تفاصيلها وقضاياها استخداماً يومياً ، وكتابة ، عامية وفصحى ، قاعدة ، وبلاغة ، وفقهاً ، والشواهد على هذا أكثر من أن تحصى أو تعد . فالمثقف المرموق هو ذلك الذي (يرطن) بكلمات كثيرة غير عربية ، أثناء حديثه أو محاضرته بالعربية ! وذلك الذي يحرص على الكتابة بعربية سليمة ، أو فيها ألفاظ وتراكيب (راقية) غير متداولة على ألسنة العامية ، مثقف ـ مع التسامح ـ قادم من الماضي ، لا يعيش الحاضر ، يتقعر ، ويلوك كلاماً غير مفهوم . والنظرة إليه غالباً نظرة استهجان واستخفاف وسخرية وإشفاق .. إلخ . هذه النظرية الدونية شائعة ، ليست على صعيد معين ، أو مستوى محدد ، أو مؤسسة بعينها ، بل هي نظرة عامة شاملة ، تقبع في اللاشعور ، وفي منطقة الشعور معاً لدى الجميع .

وإذا كانت النظرة كذلك إلى (العربية) لغة ، حديثاً وكتابة ، فما بالنا بالنظرة إلى نحو هذه اللغة ؟!

العربية بحاجة إلى إنقاذ حقاً ، ولكن من هذه النظرة الدونية العامة إليها .

ثانياً : هل صحيح أن طريقة النحاة في تقديم اللغة المعاصرة بحاجة إلى مواجهة جذرية ؟ أنا أظن أن اللغة لا تقدم بطريقة النحاة أساساً ، سواء للتلاميذ أو كبار المتخصصين ، المسألة فيها خلط فاللغة تدرس في المدارس مفرعة أكثر من فرع : القراءة والنصوص ، والقصة ، والنحو ... والنحاة إذن جزء من الطريقة لا كلها .

ولا أظن أن النحاة هم الذين يضعون مناهج القراءة والنصوص والقصة . وبالإمكان في هذا الصدد مراجعة أسماء مؤلفي المناهج المدرسية ، وسنجد أنهم أدباء ونقاد وبلاغيون وقصاصون ولغويون ، العيب إذن في الطرائق التي تقدم بها لغتنا ، وليس في طريقة فئة واحدة .

ثالثاً : العامية كنز عظيم يمثل أكثر من ثلاثة أرباع المخزون اللغوي لدى التلميذ ، هكذا يقول الكاتب الذي يرى أن المناهج تهمل هذا الكنز العظيم ! وأنا أظن أن العامية ليست مهملة في المناهج المدرسية ، بل على العكس تماماً ، هي الموجودة والمؤكد عليها ! ونظرة على الدروس المدونة في كتب القراءة ، تكشف ذلك ، وفي رأيي أن العامية ليست هي الكنز الذي نبحث عنه ، وينبغي أن نهرول نحوه . العامية أداة بسيطة ـ غير مركبة ـ نستخدمها في حياتنا واتصالنا اليومي لقضاء حوائجنا الضرورية ، نتفاهم بها ، ونتحاور ، ولكنها أبداً لن تكون اللغة التي ترقى بها مشاعرنا ، وتستقيم معها ألسنتنا ، وينشط بفضلها خيالنا ، وتدفع عقولنا وملكاتنا للإبداع .

ولا ينبغي بحال أن نخشى الفصحى أو اللغة الراقية ، فهي ليست صعبة ، ولا (بعبعاً) يخيف أحداً . لقد خلط الكاتب بين مسألتين : مسألة العامية والفصحى ، ومسألة التراث ، نعم التراث (يبسط) ويقرب للناشئة ، أما الفصحى فتعلم لهم ، الفصحى لغة قريبة ، مجموعة من الألفاظ والتراكيب الموحية الغنية الرصينة المتماسكة ، أما التراث فنمط وأسلوب قد يحتاج إلى الكثير من الدربة والخبرة حتى تدخل عالمه ، وإذا كنا سنعلم العامية في المدارس فمتى سنعلم الفصحى ! بل إن الإحساس باللغة ، ودخولها في نسيج الشخصية لن يكون إلا في السن الصغيرة ، العامية : مباشرة باردة ، والفصحى موحية دافئة ، وليس صعباً على الطالب أن نقول له مثلاً : « الوطن شلال حب يسري في دمائنا » ، ويفهم ذلك ، ويتذوقه ، ويشعر بالتدريج بإيحاءات الألفاظ ، وفي الجملة (شلال) و (يسري) وهما فصيحتان وليستا من العامية اليومية ،

والعبارة السابقة أغنى وأخصب وأدفأ وأعمق من أن نقول لـه : يجب أن تحب وطنـك ، هل نؤجل تعليم الطفـل هـاتين اللفظتين وأمثـالهما حتى يـدخـل الجـامعـة مثـلاً ، أم في الدراسات العليا ؟!

إن عظمة النصوص ليست في غنى أفكارهـا فحسب ، ولكن في رقي وغنى ألفـاظهـا وتراكيبها ، المسألة أشبه بمسألـة « الشكل والمضمون » ، قـديمـاً حسم علمـاؤنـا القضيـة ، وجعلوا من الشكل والمضمون أمرين متكاملين ، لا يغنى أحدهما عن الآخر .

رابعاً : لكل لغة نحو ولا أظن أن لغة ما إلا ولها نظام معين تخضع له .

وهذا النحو ليس ـ بالقطع ـ هيكلاً عظميـاً مخيفـاً ، ولكنـه هيكل عظمي لا غنى عنه ، فعليه يعيش اللحم الحي وفيه يسري الدم ، وبتناسقه يتحقق جمال ما فوقه ، فهو أشبه بالقاعدة الضرورية ، والأساس الذي لا بد منه لقيام عمارة شـاهقـة جميلـة تجـذب إليها الناظرين .

أمـا الأشيـاء المستترة والمقـدرة والمضمرة والمحـذوفـة والأشيـاء التي لا محـل لهـا من الإعراب ، وتلك التي لها محل ، والصيغ المعـدولـة .. إلخ ، فـأحب أن أطمئن د .أحمـد بأن هذه الأشياء لا يؤكد عليها كثيراً في المراحل الدراسيـة المبكرة ، وأزيـده اطمئنـانـاً بـأن (النحـو) و (العربيـة) لا يلقيـان عنـايـة أحـد من أطراف العمليـة التعليميـة ، لا الأساتذة ، ولا الطلبة ، ولا أوليـاء أمورهم ، الاهتمام كلـه منصب على اللغـات والعلوم والرياضية .. وليس هذا الأهمال لصعوبة هذا النحو .

حول إنقاذ اللغة من أيدي النحاة

وإنقاذ الدارسين من انفصال التشريع عن التنفيذ !![☆]

أ . د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي

أراني مؤدياً حقاً وجب علي بالمشاركة في هذا الموضوع : حول إنقاذ اللغة من أيدي النحاة ، فقد اتصلت باللغة العربية اتصالاً وثيقاً : دارساً للنحو بالمدرسة الابتدائية في كتب حفني ناصف ، ثم النحو الواضح للأستاذ الجارم في مدرسة المعلمين ، وفي دار العلوم كتب الأشموني وابن هشام ، ثم عينت مدرساً بالمدرسة النموذجية بحدائق القبة ، بكلية المعلمين ، وفي موقع المسؤولية كنت رئيساً لقسم المناهج وطرق التدريس بالإدارة العامة للبحوث الفنية فمراقباً للغة العربية بالوزارة المركزية في عهد الوحدة بين مصر وسورية ، فخبيراً لليونسكو لتأليف كتب مدرسية لتعليم اللغة العربية ، ثم مديراً عاماً للإدارة العامة لتعليم الكبار ومحو الأمية ، فمديراً عاماً لدور المعلمين ، وحين عملت بجامعة أم القرى بمكة المكرمة كان أول ما توليته من الأعمال تعليم اللغة العربية لسبعة طلاب من أمريكا ، ثم اقترحت إنشاء معهد لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها .. ثم استقر بي المطاف أستاذاً للدراسات القرآنية واللغوية بالدراسات العليا بكلية اللغة العربية .

وقد اشتركت في تعليم اللغة العربية ، والنصوص بها منهجاً ، وتخطيطاً ، وتأليفاً ، وعلى مدى ثلاثين عاماً من الخمسينيات إلى الثمانينيات كانت لي كتب مقررة في فروع اللغة العربية : القراءة ، والنصوص الأدبية ، والنحو بالمراحل المختلفة .

(☆) الأهرام ١٩٩٦/٨/٢ .

أذكر ذلك غير فاخر ، فما من شيء منه موضع فخر ، ولكني أذكره لأقدم نفسي إلى صفحة الثقافة بالأهرام ، فلعلي أكون جديراً عندها ، وعند قرائها بتناول موضوع : إنقاذ اللغة العربية من أيدي النحاة . وأن أكون حكماً تُرضى حكومته .

هذه جهودي في النحو التعليمي ، وقد اشتركت مع الأستاذ إبراهيم مصطفى وآخرين في تأليف كتاب (تحرير النحو العربي) يفي بما أقره مجمع اللغة العربية من منهج للدارسين .

أما الكتب المحققة فأبرزها كتب المحتسَب لابن جني ، والحجة لأبي علي الفارسي ، ومعاني النحو للرماني ، والجزء الثالث من معاني القرآن للفراء وهي كتب تخدم ما يريده النحويون من تيسير على الدارسين ..

وقد رأيتك أيها الصديق : د . أحمد درويش في هجومك تنعى على النحاة أنهم يصدون الطلاب عن العربية سواء أكان ذلك في المنهج أم في الطريقة وأسلوب العرض ، ووجهتَ إلى أن نسلك مسالك الأمم التي نجحت في تحبيب لغاتها إلى قلوب أبنائها وعقولهم .. وأقرر أنك ياأخي ـ تدعو النحاة المحدثين إلى شيء أخذوا به من زمن بعيد حتى قبل أن تكون دولة اسمها إسرائيل .

وهي مما استشهدت بصنيعها في تعليم لغتها لأبنائها .

كان من وسائل تيسير النحو التي اتخذناها نحن من النحاة المحدثين :

☆ النحو في الكلام كالملح في الطعام ، قليله مصلح ، وكثيره مفسد فلا ندرس من النحو للتلاميذ في المدارس الابتدائية والثانوية إلا القدر الذي لا غنى عنه في سلامة التعبير لنفسح أمامهم المجال للدراسات الأدبية ، وأما ما عداها من مسائل فيجب أن يترك للذين يتخصصون في اللغة العربية .

☆ إلغاء الإعراب التقديري والإعراب المحلي في المفردات والجمل .

☆ الاستغناء عن كثير من أبواب الصرف .

☆ سلكنا طريق التطبيق العملي ـ دون حاجة إلى دراسة نظرية تحدد فيها التعاريف والمصطلحات ـ مثل أبواب التطابق في الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث وأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة ، والضمائر ، وإسناد الأفعال إليها ، وتثنية المقصور والمنقوص والممدود ، وجمعها ، وتصريف الأفعال .

ندرس النحو بحيث يحقق الغرض الصحيح من دراسته ، وبحيث يحس التلاميذ أنه يقوم على المعنى والفكرة وليس الغرض منه الضبط ، وقد يحقق هذا الهدف تقسيم منهج النحو إلى موضوعات تقوم على المعنى بدلاً من تقسيمه إلى أبواب أو وحدات تقوم على الضبط .

☆ مسرحة مناهج اللغة العربية : وخاصة كتاب القراءة ذا الموضوع الواحد .

☆ مسايرة المنهج الذي ارتضيناه دراسة للمبادئ التربوية والنفسية لعملية الإدراك ، وقوانين التعلم التي أسفرت عنها بحوث المربين وعلماء النفس ، وأخص هذه القوانين والنظريات (نظرية الجشتالت) . ومن مبادئ هذه النظرية أننا ندرك الأشياء في أول الأمر في وحدات كلية عامة وندرك عناصرها وتفاصيلها في مرحلة متأخرة ..

ويلحظ أنه « أعاننا في المدرسة النموذجية الأستاذ إسماعيل القباني ، والدكتور عبد العزيز القوصي ، وكانت رسالة الدكتور القوصي في الدكتوراه من جامعة لندن متصلة بنظرية (الجشتالت) » .

وقد اشتركت أنا وبعض الزملاء ـ مع الدكتور القوصي في كتاب (تيسير النحو للمبتدئين) الصف الثالث الابتدائي يسير على هذه الطريقة . وجعلنا القصة فيه أساساً ، ثم وجهنا التلاميذ إلى ما في القصة من قواعد بسيطة جداً ـ وكانت قليلة ـ وهذا

ما اصطلحنا عليه في المدرسة النموذجية بمرحلتيها الإعدادية والثانوية ، بتدريس النحو في ظل الأساليب .. وكان البدء في تأليف هذا الكتاب : كتاب (تيسير النحو) عام (١٩٤٨) .

وبعد فقد تناول كثير من المشتغلين بالدراسات اللغوية والنحوية ، من رجال المجمع اللغوي وأساتذة الجامعة ، تناولوا قضية (تيسير النحو) ، وكانت لهم آراء قيمة ، ولم يؤخذ بأكثرها لما هو كائن من انفصال بين جهة التشريع اللغوي : المجمع ، وجهات التنفيذ في أجهزة وزارة التعليم ، وكثير من توجيهات المجمع في التيسير لم يؤخذ بها في الكتب المؤلفة للمدارس ، ولا بد أن تقوم الصلة بين المشرعين : أعضاء المجمع ، والمجلس الأعلى للثقافة من جهة والمنفذين بوزارة التعليم من جهة أخرى والظروف الآن مهيأة لقيام هذا التواصل والله من وراء القصد .

نعم لإنقاذ اللغة من مثل :

المسائل العشر ... المتعبات إلى الحشر (☆)

أ . د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي

حين قرأت مقال (إنقاذ اللغة من أيدي النحاة) ومنذ اللحظة الأولى لدى قراءة العنوان ، قلت : هذا أمر قد فرغنا منه ، منذ أن طلع على الناس كتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء الأندلسي (ت ٥٩٢ هـ) بتحقيق الأستاذ الجليل الدكتور شوقي ضيف (حفظه الله) .

ثم مضيت في القراءة ، وتبينت أن النحاة الذين يدعو الدكتور أحمد درويش إلى إنقاذ اللغة من أيديهم هم النحاة جميعاً ، الأولون منهم والآخرون .. وكأن اللغة في قبضة من حديد عاتية !!

ومن دراساتي القرآنية اللغوية عرفت أن النحو منذ نشأته الأولى اشتغل به قراء كتاب الله ، فهؤلاء القراء أقبلوا على قراءة القرآن وإقرائه ، التماساً للثواب الجزيل من الله : « خيرُكم من تعلَّم القرآنَ وعلَّمَهُ » .

وقد أنزل الله كتاباً لساناً عربياً .. ومعنى هذا أن هناك ارتباطاً بين اللغة والقرآن والقراء ، وما من نحوى إلا له مقام معلوم في خدمة اللغة ، وفاء لحق الكتاب الكريم وسبيلاً لفهمه ، والإيمان به .

وفي إجمال : إن المطّلع على كتاب (طبقات القراء) لابن الجزري ، وقد اشتمل على نحو ثلاثة آلاف وتسعمئة وستين ترجمة .. يجد أن معظم هؤلاء القراء مشتغلون

(☆) الأهرام .

بالنحو ، والتأليف فيه ـ بجانب مشغلتهم بالقراءة والإقراء ـ مما يؤكد التلازم الذي أشرت إليه في أول المقال ، بين النحو والقراءات ، وخدمة النحاة للعربية لغة القرآن الكريم .

والقراء السبعة دليل قريب على هذه القضية ، أليس من بينهم أبو عمرو بن العلاء .

أركان القراءة الصحيحة التي قرأ بها هؤلاء القراء السبعة :

١ ـ صحة السند .

٢ ـ موافقتها للعربية .

٣ ـ ولرسم المصحف العثماني ، ونظمها ابن الجزري فقال :

وكلُّ ما وافقَ وجْهَ نَحْوِ   وكانَ للرَّسم احتمالاً يحوي
وصَحَّ إسنادٌ هو القرآنُ   فهذه الثَّلاثةُ الأَرْكَانُ

وقد التزم ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) عند اختياره قراءة كل إمام من القراء السبعة أن تجتمع في قراءته ثلاثة أشياء : قوة وجهها في العربية ، وموافقتها المصحف ، واجتماع أهل المدينة وأهل الكوفة عليها ، وربما كان المراد بالاجتماع : اجتماع أهل الحرمين على قراءته .

وهكذا اختار ابن مجاهد هؤلاء الأئمة السبعة ، وكلُّهم ممن اشتهرت إمامته ، وطال عمره في الإقراء ، وارتحل الناس إليه من البلدان ، معروف بالثقة والأمانة في النقل ، وحسن الدين ، وكمال العلم ، وأجمع أهل مصره على عدالته فيما نقل ، وثقته فيما قرأ وروى ، وعلمه بما يقرأ ، فلم تخرج قراءاته عن خط مصحفهم الذي أرسله سيدنا عثمان إليهم ، فكان أبو عمرو بالبصرة ، وحمزة وعاصم من أهل الكوفة ، والكسائي من أهل العراق ، وابن كثير من أهل مكة ، وابن عامر من أهل الشام ونافع من أهل المدينة .. وإليك مثالاً .. مثالاً واحداً يقاس عليه على تمسك هؤلاء الأئمة بما سمعوه عن شيوخهم .

إن التَّرتيل في قوله تعـالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيْلاً ﴾ [المزمل : ٤/٧٣] ، معنـاه كما سئل عنه سيدنا علي بن أبي طالب فقال : الترتيل هو :

١ ـ تجويد الحروف .

٢ ـ معرفة الوقوف .

وقد دارت مؤلفات النحاة القراء حول هـذين الركنين ، وألزموا تلاميـذهم بـذلـك فكان فيه الحفاظ على لغة القرآن في مستوياتها الأربعة :

١ ـ صوتاً .

٢ ـ وبنية : (صرفاً) .

٣ ـ ونحواً : (التركيب أو الإعراب) .

٤ ـ دلالة . وحسب القراء النحاة ـ هذا العمل الكريم .

إن الإخلال بالركن الأول يغير المعنى ، فماذا يكون عليـه الأمر لو نطقت بـالضـاد دالا ، وبالثاء سيناً وبالظاء ذالاً ، وبالصاد سيناً ، وبالحاء هاء وبالقاف كافاً ... إلخ .

من أجل ذلـك ألفت كتب التجويـد ، كما ألفت كتب في الألفـات والهمزة والفرق بين الضـاد ، والظـاء والظـاءات وكـلاهمـا (لأبي عمر الـداني ت ٤٤٤ هـ) ، وكتـاب في معرفة الضاد والظاء للصقلّي (ت ٤٧ هـ) .

أما الوقف فهو مرتبـط أشـد الارتبـاط بـالمعنى ، وتلاوة القرآن حق تلاوتـه تـدعو إلى الـوقف حيث يتم المعنى ، ومن هنـا كانت عـلامـات الـوقف في المصـاحف للـوقف التام ، والكافي ، والحسن ، والقبيح .. إلخ .

وهناك علامة للسَّكت : (س) حيث يسكت القارئ سكتة خفيفة زمنها أقل من زمن الوقف ، وهذه تكون حتى لا يفسـد المعنى بـالوصل .. كالسكت على : ﴿ عوجـاً ، قيماً ﴾ [الكهف : ١/١٨ ـ ٢] ، حتى لا يتحول المعنى بالوصل إلى وصف العوج بالاستقـامـة وغير ذلك من المواضع ، وهي مبيّنة في القرآن الكريم .

والكتب التي ألّفها القراء النحاة كثيرة أداء لحق القرآن الكريم في فهم معناه على وجه صحيح بالوقوف أو تركها .

أما كتب المستوى الصرفي فكثيرة جداً ، ألفت مستقلة عن كتب النحو ، أو ألفت معها .. وأخيراً مستوى الدلالة (المعنى) وتكفلت بها كتب المعاجم وهي مشهورة بين الدارسين .. كما نجدها في كتب تفسير القرآن .

وللأولين من النحاة كتب ضخمة في النّحو للمتخصصين في الدراسات للغة العربية ، ثم إن لهم بجانبها كتباً للصغار تماماً على ما ينادي المربون في زماننا .

وللشيخ محمد بن أبي الفرج الصقلّي المعروف بالذكي (ت ٥١٠ هـ) كتاب صغير في النحو : في سبعة أبواب قصار هي : باب الإعراب ، فباب أقسام الأسماء المرفوعة ، فأقسام الأسماء المنصوبة ، فالأسماء المجرورة .

ثم بين في أبواب ثلاثة : أقسام الأفعال المعربة ، فأقسام الأفعال المنصوبة ، وختم بفصل في الفعل المجزوم ، وما يعطف عليه .

وله بجانب ذلك كتاب (الاستيلاء) في علم القراءات ، قال عنه الشيخ محمد مخلوف في (شجرة النور الزكية) ١٢٥ : « وألف في علم القرآن كتاباً كبيراً » ا. هـ .

ومما ينصف النحاة أنهم شيوخ البلغاء ، ولهم سبق في الدرس البلاغي نجد أطرافاً منه في كتاب سيبويه ، ثم في كتاب (الحجة) لأبي علي الفارسي (٣٧٧ هـ) ، أما ابن جني (٣٩٢ هـ) فله نظرات بلاغية في الاحتجاج للقراءات في كتابه (المحتسب) ، يستهدي فيها الحس النفسي ، والقول بما يلهج به المحدثون في أيامنا ، وأوصي بالذين يشتغلون بالبلاغة أن يقرؤوا احتجاجه لقراءة : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ ﴾ [يس : ٣٠/٣٦] ، واحتجاجه لسكون الهاء بأنه لتقوية المعنى في النفس .. وأن العرب قد تحمل ألفاظها لمعانيها ، حتى تفسد الإعراب لصحة المعنى[1] .

(١) انظر المحتسب ٢١١/٢ بتصرف واختصار .

حتى إذا كان عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) فإن أستاذه نحوي ، هو ابن أخت أبي علي الفارسي ، وليس له أستاذ سواه[١] .

وقد حدد عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز . ثم إن له رأياً في النحو ، إذ يراه جامعاً لما يحتاج إليه من يريد النظر في معاني الكلام ، ومن يفسر كلام الله ، وأنه لا غنى للمفسر عن النظر فيه ، والإلمام به ... فهل هناك إنصاف للنحاة بعد هذا ؟

وعلى ذكر من نظرية النظم عنده ، فقد وجدت أبا سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) سبق عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) بالقول بالنظم ، وذلك في المناظرة التي وقعت بينه - وهو يمثل النحاة - وبين متى بن يونس ويمثل المناطقة ، قال أبو سعيد السيرافي لمتى :

« حدثني عن المنطق ما تعني به ؟ فعرف متى المنطق تعريفاً مضمونه أنه ما يعرف به صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه » .

وخطّأه أبو سعيد زاعماً أن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف عند المتكلمين بالعربية[٢] .

وبعد : فلله في خلقه شؤون .

الكسائي الإمام النحوي الكوفي أحد القراء السبعة يهجوه أحد البصريين ، فيقول : إن الكسائي وأصحابه يرقون في النحو إلى أسفل ، ويرى الكسائي بعد موته على حال حسنة فيسألونه عن السبب فيما صار إليه ، فقال : بالقرآن بالقرآن .

وأبو علي الفارسي يتخيله أبو العلاء في رسالة الغفران ، وقد اجتمع عليه جماعة ينكرون عليه ، ويلومونه على تأويل أبيات لهم ، فقال لهم أبو العلاء : « يا قوم !

---

(١) انظر البسط والتفصيل في أبي علي الفارسي ٢١٢ .

(٢) انظر الإمتاع والمؤانسة ٤١١/١ .

لا تعنتوا هـذا الشيخ ، فـإنـه يمتّ في كتـابـه في القرآن ، المعروف بكتـاب (الحجـة) ، فتفرقوا عنه »[١] .

وأخيراً نحـوي يسمى (الحسن بن صـافي) لـه كتب في القراءات والنحـو جيـدة ، لكنه ألف كتاباً غريبـاً ، ضمنـه عشر مسـائل استشكلهـا في العربيـة سماهـا : « المسـائل العشر المتعبات إلى الحشر » وسمى نفسه « ملك النحاة » ، كان يقول : هل سيبويـه إلا من رعيتي وحاشيتي ، ولو عاش ابن جني لم يسعه إلا حمل غاشيتي » يعني أمتعته !

أقول : إن مثل هذا النحو لا فائدة فيه ، ويجب إنقاذ اللغة منه ، ولو كان صاحبـه ملكاً للنحاة !! ومرة أخرى : لله في خلقه شؤون .

(١) رسالة الغفران ١٥٤ .

لغتنا وحماية الفكر القومي(*)

د . محمد الجوادي

على مدى الشهرين الماضيين فتحت الأهرام صدرها لرؤية الدكتورين أحمد هيكل وأحمد درويش حول تعليم اللغة العربية وقواعدها ، وقد أبلى كلاهما بلاء حسناً في طرح الكثير من المفاهيم الحيوية الكفيلة بتنمية وتطوير تعليم النحو العربي واللغة العربية ، ولست بمستطيع أن أنكر مدى حيوية الآراء التي عرضها الأستاذان الكبيران ولكني مع هذا أحب أن أتناول الموضوع من ناحية أخرى يبدو أنها قد غابت نهائياً عن الفكر المصري المعاصر .

وسأسارع إلى القول بأن تعليم قواعد اللغة يمثل صمام الأمان الأول للفكر بمعناه الواسع الذي يشمل الفكر الديني والعلمي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والإداري .. إلخ ، وعندما يعاني الإنسان في أي حضارة وأي لغة وأي دولة من العجز عن استيعاب وتطبيق الأجرومية الخاصة بلغته فإنه بالتالي يصبح في المحل الثاني من حيث قدرته على تفهم الأمور وحسمها ، وسأضرب الأمثال على هذا بعد قليل ، بيد أنّ طبيعة الحياة تمكّن الشعوب والجماعات من أن يقوم بعض أفرادها بما يعجز عنه الآخرون ، فليس من المحتم أن يتولّى كلٌّ البشر كلَّ القضايا في كلّ الأوقات وينبئنا التاريخ أن الأمور تمضي على هذا النحو حتى يهمل كل الناس أمراً ما أياً كان هذا الأمر ، وعندئذ تعاني الجماعة كلها من الانصراف الكلي عن العناية بأحد جوانب الحياة .. وفي حالتنا مع أجروميتنا فإن الأمر لم يصل بعد إلى هذا الحد ، والحمد لله ، ولكن يبدو أننا نسارع الخطى إليه ،

(*) الأهرام .

بل ونسرع الخطى أيضاً قدر ما نستطيع .. ويغيب عن أذهاننا أن أول الحلول الأساسية لمقاومة الظواهر الاجتماعية الهدامة بما فيها الإرهاب والإدمان هو إعطاء النحو (الأجرومية) حقه في التعليم بالإضافة إلى التربية الرياضية من دون هاتين التربتين اللغوية والرياضية ، لا يمكن أبداً أن يكون الجيل الجديد في أي مكان وأي زمان محصناً من مشكلات اجتماعية كبرى كالإرهاب والإدمان ، وإذا كان الإنسان في التعريفات المبسطة عقلاً وعضلات فإن هاتين التربتين اللغوية والرياضية هما الكفيلتان بضبط النشاط البشري لكي يتّسق مع القيم العليا ، ولكي يكون منتجاً لشيء ذي قيمة أو ليكون مؤدياً لنشاطه حسب الأصول لا العشوائيات .

إن تعليم قواعد اللغة (أي لغة) ليس إلا الوسيلة الأولى والأساسية لصياغة الفكر البشري ليكون قابلاً للتواصل مع الآخرين ، وبقدر ما يتنامى هذا التعلم في الوصول إلى درجات رفيعة من الإجادة بقدر ما يتحقق التواصل المجتمعي تماماً كما هو الحال في كل أجهزة الحاسبات والاتصالات التي نستعملها اليوم .

ونحن نرى اليوم وزراء وعمداء ومسؤولين كباراً في مواقع فكرية ، وقد اختلط عليهم الأمر في الصواب فإذا هم يحولون الأوراق لتبقى بالشهور في أيدي المستشارين القانونيين (مثلاً) مع أن الأمر الذي يؤجلون البت فيه لا يعدو أن يكون من البديهيات ، ولم يكن هذا ممكناً في الجيل السابق مثلاً ولكن في ظل انحطاط تعليم (القواعد) نما الإحساس العام بتقبل تأجيل البت في كثير من الأمور إلى حين الرجوع إلى (القاعدة) القانونية ، وغني عن البيان أن هذا لا يحدث اليوم في اليابان أو كوريا مثلاً ، كما أنه لم يكن يحدث بالأمس في مصر ... ولكن الإحساس العام بانحطاط مستوى الإدارك النحوي قاد تلقائياً إلى إحساس آخر بأن تكون القواعد القانونية البديهية والأساسية في حاجة هي الأخرى إلى استذكار واستعادة من الكتب وأهل الذكر ... وهكذا أصيب سريان الحركة الإدارية واتخاذ القرار في كثير من مؤسساتنا

العامة بنوع جديد من أنواع الشلل . على أن الأكثر خطورة من هذا (الشلل) الناشئ عن الجهل أو الخوف من اتخاذ القرار هو نوع آخر من الشلل المتعمد الذي يلجأ إليه صاحب القرار من أجل التسويف وقتل الوقت إذا كان في قرارة نفسه حريصاً على عدم تطبيق القاعدة فإذا هو يلجأ إلى تحويل المسألة برمتها إلى مستشار قانوني ، وقد يكون هو نفسه أستاذ قانون مبرزاً .

ربما يكون الوقت قد حان الآن لنضرب مثلاً على طبيعة المشكلات المصطنعة في فكرنا المعاصر ، والتي لم تنشأ إلا في غياب الإحساس بالنحو العربي ، وفي غياب الإحساس بكل الأجروميات اللغوية .. نحن نعرف أن الممنوع من الصرف مثل (أحمد) يجر بالفتحة ، وهذه قاعدة تدرس قبل نهاية التعليم الأساسي .. ونعرف كذلك أن المعطوف يتبع المعطوف عليه (في الإعراب والتذكير والتأنيث والتعريف .. والتنكير إلخ) (!) ، وهذه قاعدة تدرس أيضاً في أواسط التعليم الأساسي .. ولكننا في ظل المناخ الذي نعيشه في هذه الأيام نستطيع أن نوجد مشكلة عويصة يكون فيها أكثر من وجهة نظر لا في ظل عجزنا عن تطبيق القواعد البسيطة ، وإنما في ظل تعمدنا لإفساد القاعدة في ظل مناخ يسمح بهذا بعدما استشرى الجهل بالنحو والأجرومية !

ولنأخذ على سبيل المثال قولنا : « سمعت هذا الخبر من أحمد ومحمد » .

طبعاً من المفهوم طبقاً لقاعدة المنع من الصرف أن نهاية (أحمد) ستكون فتحة بدلاً من الكسرة ؛ لأنه ممنوع من الصرف ... ومن المفهوم أن (محمد) سيكون مجروراً بالكسرة لأنه يتبع القاعدة الطبيعية لا الاستثناء .. ولكن أصحاب الأغراض أيا كانت ، يستطيعون أن ينجحوا ويجروا محمداً بالفتحة هو الآخر .. لماذا ؟ يقولون لك في منتهى البساطة لأنه معطوف على أحمد ، ولا بد أن يتبع أحمد وما دام على أحمد (فتحة) فلا بد أن يكون على محمد هو الآخر (فتحة) ... ووجه المغالطة مفهوم بالطبع فالتبعية تكون في الإعراب نفسه ، وليس في علامة الإعراب بدليل أن الجملة

نفسها تتسع لمعطوفات أخرى تكون علامات الجر فيها علامات أخرى كالياء في جمع المذكر السالم ، حين نقول : « سمعت الأخبار من أحمد ومحمد والصحفيين » .. وهكذا .. لكن في ظل مناخ الجهل السائد يصبح الأمر شبيهاً بقصة الفأر الذي كان يجري حين سمع أنهم يعدمون الجمال ، فقيل له : ولماذا يجري وهو فأر وليس بجمل ؟ فقال : إنهم سيعدمونه قبل أن يثبت لهم أنه ليس بجمل .

وإذا تأملنا عدداً من القضايا الاجتماعية المطروحة على الرأي العام في بلادنا اليوم والتي تنتظر حكم محكمة القضاء الإداري أو حكم المحكمة الدستورية العليا ، فإننا نجدها لا تختلف كثيراً عن هذا الخلط (المتعمد في الغالب) بين الإعراب وعلامات الإعراب ! وعلى الرغم من أن الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات ، فإننا في ظل مناخ ، لا يكف عن التأفف من صعوبة تعلم الأجرومية ، قد حولنا كل أمورنا إلى مشتبهات !!

وفي فلسفة التقدم والتنمية والبناء الاقتصادي لأي مجتمع في هذا العالم ، فلابد من وضوح القواعد أمام الناس جميعاً بحيث يكون كل واحد منهم قادراً على تحديد موقفه وحسمه من دون هذه السلسلة الطويلة التي نعاني منها اليوم !

وفي كل النشاطات الاقتصادية والاجتماعية تبقى لقواعد اللغة مكانة الصدارة في صياغة الفهم والتفاهم والتواصل بين المجموع البشري .

ومن العجيب أننا جميعاً ندرك أن الذين يجيدون قواعد اللغة الأجنبية يجيدون في الوقت نفسه قواعد اللغة العربية ، وحين كنا طلاباً كنا نلاحظ أن أساتذة اللغة الإنجليزية (أو الألمانية أو الفرنسية) المجيدين في لغتهم يجيدون قواعد اللغة العربية بالقدر نفسه الذي كنا نجده عند أساتذة اللغة العربية المجيدين ، وكان الناس جميعاً في بلدان مختلفة يلاحظون هذا إلى أن جاء عالم اللغة الكبير ناعوم تشومسكي (الذي زارنا منذ عامين) وأثرى هذا الفهم بدراساته الرائعة عن الأجرومية الخلاقة وتشابه الأجروميات .

وخلاصة القول أن تعليم النحو العربي ينبغي أن يكون الهدف الأول لأي تعليم في مصر سواء كان هذا التعليم أساسياً أم ثانوياً ، ومن دون هذا التعليم الجيد للأجرومية فعلى الدولة أن تنتظر كثيراً من الأمراض الاجتماعية المدمرة كالإرهاب ، وكثيراً من الفشل الاقتصادي والتنموي المحقق على مستوى الموظفين العموميين ، وكثيراً من بطء الأداء وقصوره ونزوعه إلى الخطأ الظاهر على مستوى المديرين التنفيذيين والتيارات البيروقراطية العليا .. بيد أن الجانب الخطر في هذا المرض هو أن فترة الحضانة الخاصة به (بلغة الطب) تطول إلى حوالي ثلاثين عاماً (هي عمر الجيل الكامل من البشر) وهكذا فإننا حين نهمل القواعد اليوم سنؤذي الأجيال اللاحقة بأكثر مما نؤذي أجيال اليوم .. ومن حسن الحظ أن جوهر سياسة الرئيس مبارك هو ألا نرحل المشكلات لنؤذي بها الأجيال القادمة .

حول إنقاذ اللغة : (تعقيب) لا (تثريب) ..(☆)

د . عبد الفتاح الفاوي

في إحدى مقالاته عن إنقاذ اللغة شجب د . أحمد درويش وثلب طريقة تعلم اللغة العربية وتعليمها ، وذكر فيما ذكر أنها طريقة عقيمة تنفر من اللغة أكثر مما تحبب فيها ، وتبعد عنها أكثر مما تقرب منها ، لأنها تنهج في تقديمها نهج القدماء مع أن اللغة تطورت كثيراً أسلوباً وأداء وبُنىً وتراكيب ومفردات وألفاظاً .

وينتقد مناهج التعليم وأن محاولات التطوير فيها تقف دائماً عند الشكل والهيكل ، ولا تتناول المنهج والجوهر ودعا فيما دعا إلى استبعاد معظم أبواب النحو في تعليمنا للغة بحجة أن تعلم اللغة لا يتأتى عن طريق تعلم النحو ، كما دعا أن يقوم تعليمنا للغة على العامية من جهة والفصحى المعاصرة - أو ما يمكن أن نسميه اللغة الثالثة - من جهة أخرى . يقول فيما يريد أن يستبعده : « ما معنى أن نفرض عليه (التلميذ) .. بدل البعض من الكل وبدل الاشتمال والمخصوص بالمدح والذم وأفعال المقاربة وكثيراً غيرها » ، وانظر إلى عبارة وكثير غيرها - هذه - التي تكاد تبتلع في جوفها جميع أبواب النحو تقريباً ويقول فيما يريد أن يستحدثه : « فإننا فيما يبدو نهمل كنزاً عظيماً .. لدى التلميذ وهو لغته العامية .. التي ينبغي أيضاً أن تكون هدفنا الوحيد في السلم الأول للتعليم » . ويضيف إلى العامية التي يجب أن ينبثق الدرس اللغوي منها الفصحى المعاصرة التي تتمثل في وسائل الإعلام ورسائل الأهل والأصدقاء والمحبين وحفلات الوداع والاستقبال وخطب المرشحين وتأبين الراحلين .

(☆) الأهرام ٩/٨/١٩٩٦ .

هذه هي روافد تعليم اللغة عند أستاذنا الدكتور أحمد درويش وقبل أن نناقشه فيما يريد أن يدعه وما يريد أن يأخذ به نريد أن نسأله : عن أي طريق من هذه الطرق تعلم سيادته اللغة الفصيحة الجميلة التي كتب بها مقالاته تلك ، أعني طريق رسائل المحبين وتأبين الراحلين أم من كتب النحو ...! وليخبرنا بصدق لو تعلم اللغة عن طريق حفلات الوداع والاستقبال وخطب المرشحين ، أكان يستطيع أن يدبج لنا مقالة مثل مقالته تلك ؟ وإذا كنا ننعى على وسائل إعلامنا إهمالها للغة أو موت اللغة على يديها فكيف نجعلها منطلقاً لتعليم اللغة وفاقد الشيء لا يعطيه .

ولا شك أن كلام د . أحمد فيه كثير من الايجابيات بالنسبة للغة تذكر منها : أن اللغة تشكل بعداً رئيسياً في تكوين الشخصية العربية وأنها لغة فيها شيء من القداسة وأنها وسيلة الاتصال الأولى بيننا نحن العرب إلى جانب ما ذكره من أنه لا يدعو إلى عدم الاهتمام بالنحو .. وفيما عدا ذلك فإن كلامه يحتاج إلى مناقشة أو مراجعة .

وخلاصة ما يدعو إليه بعد دعوته إلى طرح أبواب النحو أمران :

١ ـ الاستعانة بالعامية .

٢ ـ الانطلاق في تعليم اللغة من الفصحى المعاصرة .

ويكاد يلحظ المتأمل في كلامه شيئاً من التناقض عندما يرى أن التفرقة بين العامية والفصحى تفرقة خاطئة أو جائرة حيث يقول : « إن فكرة المخالفة الضرورية بين الفصحى والعامية يجب أن تبتعد » ، في الوقت الذي يفرق فيه تفرقة حاسمة بين الفصحى المعاصرة وفصحى التراث حين يقول : « وهل نحن أمام فصحى واحدة أم فصحيات .. وهل الفصحى التي نتعامل بها اليوم هي الفصحى نفسها التي كان يكتب بها الجبرتي وابن إياس » .

وأياً ما يكن فإن دعوته إلى طرح النحو والاعتماد في تعليم اللغة على العامية

والفصحى المعاصرة دعوى خطيرة لا تسلم له لأن فيها تفريقاً للغة وتضييعات بل قتل لها ووأد ..

على أن ضعف المستوى العام في اللغة العربية عند التلاميذ والمدرسين ، وعلى ألسنة العامة والخاصة ليس مردوده تدريس القواعد وأبواب النحو ، وإنما مردوده الاقتصار في تعليم اللغة عن حد تدريس تلك القواعد فحسب دون أن يصاحب ذلك أو يضاف إليه الممارسة العملية والقراءة التطبيقية ، وأعني بها القراءة الجادة لعيون كتب الأدب قديمها وحديثها على حد سواء والحفظ لروائع الشعر العربي قديمه وحديثه على حد سواء . فلو ضم ذلك ـ بأي طريقة ـ إلى درس القواعد لاستقامت اللغة على الألسن واستقامت الألسن باللغة ، ولا يقال : إن ذلك كائن ؛ لأن الكائن منه ضئيل هزيل .

فالقواعد من ناحية والقراءة والحفظ من ناحية هما جناحا اللغة . والقراءة الحرة وعقد المسابقات من مختلف الجهات وفي شتى المناسبات في القراءة وفي الحفظ ، حفظ الأدب ، وحفظ القرآن ، وتكليف التلاميذ بقراءات وحفظ في العطلة الصيفية التي تمتد إلى أكثر من أربعة أشهر مما يعين على استقامة اللغة وإجادتها ولو تم ذلك بصورته الجادة والمرجوة لكان للغة على ألسنتنا حال آخر غير ما هي عليه الآن وخير مما هي عليه الآن .

تعقيب على الحوار

امتدت المسافة الفاصلة بين المقالة الأولى من هذه المجموعة وهي التي صدرت في شهر إبريل سنة (١٩٩٦م) ، والأخيرة وهي التي صدرت في شهر ديسمبر من العام نفسه ، حوالي ثمانية أشهر كاملة ، شغل الرأي الثقافي خلالها ، في عاصمة ثقافية كالقاهرة ، بقضية اللغة وتجديدها .

ومع أن العادة جرت ألا يطول المدى الزمني بالقضايا التي تناقشها الصحف الأدبية والملاحق الأسبوعية ، لأنها تسعى إلى إشباع الظمأ الثقافي لقرائها ، وهو ظمأ متجدد عند قارئ الصحيفة ، وربما يختلف عن الظمأ الثقافي لقارئ الكتاب ، مع وجود هذا المبدأ الذي يكاد يحكم قضية اختيار الموضوعات المطروحة على قارئ الصحيفة الأدبية ، فإن بقاء موضوع كموضوع (إنقاذ اللغة) مفتوحاً للمناقشة خلال ثمانية أشهر له دلالته الواضحة على اهتمامات شريحة كبرى من المثقفين والقراء .

ويتضح ذلك من استقراء اهتمامات الذين ساهموا في النقاش ، فمنهم الأستاذ الجامعي في مجال النقد الأدبي ، أو في مجال علوم اللغة ، أو مجال النحو بمعناه التخصصي ، لكن منهم كذلك الموجه التربوي ، والعامل في مناهج التدريس ، والباحث في علوم الفلسفة ، والمتخصص في مجال المخطوطات ، بالإضافة إلى أستاذ جامعي في الطب ، دون أن نشير إلى الذين تابعوا الحوار خارج إطار الصحافة الأدبية المصرية ، أو الذين لم يتح لردودهم أن تنشر أو نشرت ولم يتح لنا ضمها إلى هذه الطائفة من المقالات .

إننا كثيراً ما نبدأ في إعداد الرد عند سماع (المبتدأ) قبل سماع (الخبر) فضلاً عن الاهتمام بالمتعلقات أو المكملات أو التفصيلات التي كان يعطيها النحاة الأقدمون أنفسهم كثيراً من الاهتمام ، وتضيع جدوى النقاش ، لأن كلاً من المتحدث والسامع يتحرك في اتجاه مختلف .

وأحياناً نستعين بوسائل في الرد تستمد قوتها من خارج دائرة المجال الذي يدور النقاش فيه ، كأن نلمح الوسيلة إلى أعراف اجتماعية أو خلقية أو سياسية أو دينية تعد المخالفة لها في ذاتها نقيصة ، وينطلق المحاور من هذا الحكم الراسخ في أذهان الجماعة ، لكي يقيم عليه حكماً مناظراً في مجال القضية المطروحة ، مع أن الصلة قد لا تكون محكمة بالضرورة بين المجالين .

إن بعضاً من هذا الخلل تظهر آثاره عندما تشير إلى لغة الحياة اليومية ، وإمكانية الاعتماد على رصيدها الهائل في ذهن الطفل والانطلاق منه لتعلم الفصحى ، فبدءاً من اللحظة التي سوف تنطق فيها بالمبدأ وتقول : « اللغة العامية .. » . سوف تتشكل مجموعة ردود الأفعال المعدة ، وسوف يقال لك مهما كان نوع (الخبر) : إنك تدعو إلى هدم الفصحى ، وقتل التراث والابتعاد عن ميراث الآباء ، وسوف ينقطع خيط الحوار مع محدثك الذي سيتوقف عادة عن سماعك حتى وإن تظاهر بفتح الأذنين ، وكذلك الشأن في الدعوة إلى التدرج في تناول مستويات الفصحى ، والبدء بالمستوى المألوف للتلميذ الصغير ، فأنت معرض إذا لم يستخدم معك محاورك منهجاً علمياً ، أن تصنّف في طائفة من الطوائف غير المرضي عنها ، والتي أشرنا إليها سابقاً .

وإذن فنحن في حاجة إلى مزيد من الاتفاق حول لغة الحوار التي يمتلك الكثير منا بالفعل قدراً طيباً من عناصرها ، وعندما نتخطى هذه العقبة الصغيرة سوف نجد أنفسنا أمام ثراء من الأفكار ، يدفع إلى مزيد من الحوار ، كما حدث مع هذه المجموعة من المقالات ، التي تكتسب أهميتها بقدر ما أثارته وما تثيره من حوار ، وتضيف إليها الآراء

التي تحاورها حتى وإن عارضتها قيمة كبرى ، فكما يقول النقـاد : « نحن في مجـال الحزب السياسي تكون فائدتنا أكثر ، من خلال كسب الرأي أو (الصوت) الموافق ، لكننـا في مجـال الحـزب الفكري ، ربمـا تكـون فـائـدتنـا أكثر من خـلال سماع الرأي أو الصـوت المخالف » .